أثر الثقافات الأجنبيَّة في الشعر العباسي

(الشاعر بشار بن برد أنموذجًا ـ دراسة تحليلية)

أ.د بخيت فضل السيد سلامة

الأستاذ المساعد جامعة البحر الأحمر، بورتسودان ـ السودان

المستخلص:
تهدف هذه الدراسة (أثر الثقافات الأجنبيَّة في الشعر العباسي ـ بشار بن برد أنموذجًا) إلى تتبع أثر الثقافات الأجنبية في الشعر العباسي ؛ من خلال شاعر من شعرائه؛ بشار بن برد، الذي تجلت فيه روح هذا العصر بصدق وعمق.
وتنبني مشكلة هذا البحث على سؤال رئيس وهو ما أثر الثقافات الأجنبية في شعر بشار بن برد ؟ وسيعالج في ضوء المنهج الوصفي التحليلي بأدواته الوصف والتحليل والتطبيق.
وتكمن أهمية: فيه بيان مفصل لتجديد الشعراء العباسيين في ألفاظ الشعر، ومضمونه على أساس منهج ثابت من التزاوج بين العناصر الفنية الموروثة والحضارة الجديدة. و فيه بيان ما أفاده الشعر العربي من الفكر الوافد ؛ وذلك من خلال أشعار بشار بن برد. وعلى الرغم من أن الثقافات الأجنبية؛ قد ظهر إسهامها بفاعلية في صناعة الأدب العربي ؛ فإن المكتبة العربية لا زالت في حاجة لمثل هذه الدراسة.
وتوصلت الدراسة إلى عدة نتائج أهمها: أن شعر بشار أشبه بوثيقة تستمد عناصرها من التيارات الأجنبية، ويكشف لنا عن طبيعة الحياة الأدبية، والاجتماعية، والسياسية في هذا العصر، عصر سيطرة العنصر الأعجمي على العنصر العربي. وأظهرت الدراسة شدة تأثر بشار بن برد بهذه بالثقافات الوافدة ولا سيَّما الثقافة الفارسية، دون أن تطمس هويته الشعرية العربية. وحين نلقي نظرة عامة على شعر بشار، نجد تأثير الحياة الجديدة ظاهره فيه من حيث لفظه ؛ فقد صفا وراق، وفي أسلوبه اتضح وأشرق، وقد مال بشار إلى السهل من الألفاظ، والرشيق الليِّن الممثل للمعنى، والتنائي عن الغليظ الجافي من مفردات اللغة، ونزع إلى كل عذب سلس من الألفاظ تسيل رقة وعذوبة.
ويشتمل البحث على: مقدمة وأربعة مباحث، و تمهيد؛ تحدثت فيه عن صورة المجتمع في العصر العباسي. المبحث الأول عن التعريف بالشاعر بشار بن برد ، والمبحث الثاني عن الثقافات الوافدة مثل: الفارسية ، والهندية ، واليونانية، والسريانية، وأثرها في المجتمع العباسي، والمبحث الثالث: عن مدى تأثر شعر بشار بهذه الثقافات من حيث ألفاظه ، وأساليبه وأوزانه وقوافيه، والمبحث الرابع: في الموضوعات الشعرية التي طرقها بشار بن برد، ومدى تأثرها بالثقافات الأجنبية ، ثم يلي ذلك خاتمة للبحث تشتمل على ملخصٍ للبحث وأهم نتائجه.

الكلمات الإفتتاحيّة: الفارسية ، الرومانية، الهندية ، السرياني، الشعوبية، الزندقة ، اللهو ، المجون، الاستلال.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسولنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين، وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد:

فلم يكن انتقال الخلافة إلى العباسيين مجرد تغيير سياسي فقط، بل كان ثورة اجتماعية غيرت من صورة المجتمع العربي التي كان عليها أيام الأمويين إلى مجتمع إسلامي جديد تعيش فيه أمة إسلامية تضم عناصر بشرية جديدة ليست بعربية محضة، وقد استطاعت هذه العناصر أن تفرض نفوذها مما حدا بالجاحظ أن يصف الدولة الأموية بأنها عربية أعرابية، ويصف الدولة العباسية بأنها فارسية أعجمية.

فقد شاع الإقبال المتزايد على الزواج من الأعجميات، ولما كان الإسلام لا يسمح بالزواج من أكثر من أربع فقد انطلق المجتمع في التسرّي وامتلأت القصور بالإماء والمولدين من أبنائهن، وقد صاحب ذلك الكثير من الظواهر الاجتماعية التي لم تكن مألوفة بين العرب، وانعكس كل ذلك في الأدب كمرآة لتلك المرحلة، ونتاج لها.

كما شهدت الدولة العباسية أكبر نهضة ثقافية شهدتها الحضارة الإسلامية، وقد كانت الثقافات الأجنبية، من أهم الروافد التي غذت تلك النهضة، وكان من مظاهرها التأثير في الثقافة الإسلامية تلك الألفاظ التي استعارها العرب، وفي ازدهار حركة الترجمة، إضافة إلى هؤلاء الفرس الذين تعربوا، وهؤلاء العرب الذين أخذوا بحظ من الثقافات الأجنبية، وقد ملأوا الدنيا علما وحكمة وشعرًا ونثرًا.

تعتبر فترة العصر العباسي فترة انتصار الثقافات الأعجمية على الحضارة العباسية العربية؛ إذ كان الخلفاء العباسيين مقلّدين إلى درجة كبيرة لملوك الفرس القدماء ولعلنا نستشف ذلك من أسلوبهم البنائي، ومسكنهم وموائدهم، وأزيائهم، ومما لاشك فيه أن العرب ـ بدرجة تحضرهم المحدود ـ لم يستطيعوا أن يتجنبوا المؤثرات الحضارية القوية التي سلطت عليهم من الحضارات الأجنبية عامة والثقافة الفارسية بصفة خاصة؛ وكان من نتيجة ذلك الاحتكاك أن دخلت ألفاظ فارسيَة إلى العربية، وأصبحت جزءًا من إرثها اللغوي، كما دخلت ألفاظ عربية إلى الفارسية وصارت أيضًا جزءًا من مفرداتها.

وكان بشار بن أحد أبرز شعراء هذا العصر الذين تأثروا بهذه الثقافات في شعرهم؛ وفي هذا البحث عرض تفصيلي، وتحليل لتأثر بشار بن برد بهذه الثقافات؛ ولذا جاء هذا البحث بعنوان :" أثر الثقافات الأجنبية في شعر بشار بن برد" وقد جاءت الدراسة في مقدمة وثلاثة فصول.

أما موضوع الدراسة فهو: " أثر الثقافات الأجنبية في شعر بشار بن برد"

يتناول الدارس في هذه المقدمة: الموضوع وسبب اختياره، وأهدافه، والمنهج المتبع، ومادة الدراسة، والجهود السابقة، ثم خطة الدراسة.

أسباب اختيار البحث:

١ـ خدمة الأدب العربي من خلال أنضر حقب تاريخ العرب والإسلام من حيث خصوبة الفكر وأجمل عصوره، العصر العباسي.

٢ـ بيان أثر الثقافات الأجنبية في الشعر العربي متمثلًا في شعر بشار بن برد.

٣ـ معرفة الألفاظ والأساليب الأجنبية في لغتنا العربية من خلال شعر أبي نواس.

مشكلة البحث:

وتنبني مشكلة هذا البحث على سؤال رئيس وهو ما أثر الثقافات الأجنبية في شعر بشار بن برد ؟

المنهج المتبع:

وسيعالج في ضوء المنهج الوصفي التحليلي بأدواته الوصف والتحليل والتطبيق، وستقتصر حدوده على شعر بشار بن برد بهذه الثقافات.

أهمية البحث:

١ـ فيه بيان مفصل لتجديد الشعراء العباسيين في ألفاظ الشعر، ومضمونه على أساس منهج ثابت من

التزاوج بين العناصر الفنية الموروثة والحضارة الجديدة.
٢ـ فيه بيان ما أفاده الشعر العربي من الفكر الوافد ؛ وذلك من خلال أشعار بشار بن برد.
٣ـ وعلى الرغم من أن الثقافات الأجنبية؛ قد ظهر إسهامها بفاعلية في صناعة الأدب العربي ؛ فإن المكتبة العربية لا زالت في حاجة لمثل هذه الدراسة.

هيكل البحث:
جاءت هذه الدراسة في أربعة فصول، ومبحث تمهيدي؛ تحدثنا فيه عن صورة المجتمع في العصر العباسي والمبحث الأول عن التعريف بالشاعر بشار بن برد وتناولت فيه اسمه ولقبه ونشأته وشعره وآراء القدامى، والمبحث الثاني عن الثقافات الوافدة مثل: الفارسية ، والهندية ، واليونانية، والسريانية، وأثرها في المجتمع العباسي، والمبحث الثالث: عن مدى تأثر شعر بشار بهذه الثقافات من حيث ألفاظه ، وأساليبه وأوزانه وقوافيه، وتم تقسيمه إلى ثلاثة مباحث: الأول في الألفاظ والأساليب، والثاني في الأوزان والقوافي والثالث في الأخيلة والمعاني. والمبحث الرابع: في الموضوعات الشعرية التي طرقها بشار بن برد، ومدى تأثرها بالثقافات الأجنبية، ويحتوي على ثلاثة مباحث: الأول في الشعوبية، والثاني في الزندقة والإلحاد ، والثالث في اللهو والمجون، ثم يلي ذلك خاتمة للبحث تشتمل على ملخصٍ للبحث وأهم نتائجه،وأهم المصادر والمراجع.

(فصل تمهيدي)
صورة العصر العباسي الأول
(١٣٢ ــ ٣٣٤ هـ)

كان للثقافات الأجنبية الوافدة على المجتمع المسلم تأثيرًا كبيرًا على جميع مناحي الحياة في فترة زاهية من التاريخ الذي امتد من قيام الدولة العباسية عام ١٣٢هـ حتى استيلاء البويهيين على بغداد عام٣٣٤ه ؛ وكان لهذا التأثير صداه الكبير على الأدب والأدباء؛ فأحببنا أن نتفحصه ونتأمل فيه.

فالعصر العباسي هو أنضر حقب تاريخ العرب والمسلمين من حيث خصوبة الفكر وتنوع ثمرات العقول ،وازدهار الأدب ومختلف الفنون؛ بفضل ما تهيأ فيه من اختلاط وتمازج وانفتاح على أمم الأرض والشعوب؛ فأخذ من كل موروثاتها بغير حدود أو قيود، وقد أنعكس كل ذلك على الشعر والشعراء حتى أعتبر ذلك العصر الذهبي للآداب.

ولقد واجه المجتمع الإسلامي هذا الغزو الثقافي فأفاد منه في جوانب وتضرر منه في جوانب أخرى؛ لقد كان للفرس في الدولة الجديدة اعتبار منذ قيامها ونفوذ، وأخذ هذا النفوذ ينمو ويترعرع ويتزايد يومًا بعد يوم؛ ففي أيام المنصور ١٣٦ـ ١٥٨هـ كانت القاعدة العامة والمبدأ المعمول به هو تريسهم على العرب؛ وكان أكثر من تولى له الأعمال فرسًا[١].

وزاد نفوذهم أيام الرشيد (١٧٠ ــ ١٩٣هـ) بفضل البرامكة الذين كانوا هم المتصرفين في شؤون الدولة، وقد كانوا ممثلين للفرس، وتعتبر نفوذ هذه الأسرة نفوذًا للأسرة للجنس الفارسي كله. وفي عهد المأمون؛ قد سجلوا انتصارًا جديدًا بانتصار المأمون بن "مراجل" الفارسية على أخيه الأمين بن زبيدة العربية الهاشمية[٢] ؛ فتأكدت مكانتهم ورسخت قدمهم.

وسار النفوذ الفارسي صعدًا إلى أن جاء المعتصم (٢١٨ـ٢٢٧هـ)، فاحتل الأتراك هذه المنزلة على حساب الفرس والعرب معًا؛ فقد استقدم هذا الخليفة قومًا من سمرقند وفرغانة ونواحيها " وأمعن في شرائهم حتى بلغت عدتهم ثمانية آلاف وقيل ثمانية عشر ألف ولأجلهم بنى مدينة سامراء[٣] وجعل منهم حرسًا خاصًا منهم. وتلاعبوا بالخلفاء الألاعيب إلى أن أسلموا الدولة للضعف ، وأخذت الفوضى تسود الدولة وعم الشغب، ونقصت الدولة من أطرافها، إلى أن انقض "بنوبويه" عام ٣٣٤ هـ على عاصمة الخلافة بغداد، وتحولت الدولة الواحدة إلى الدويلات. وتم اتصال العرب المسلمين بهذه الثقافات بطرق وهي:

أولًا ـ الاتصال المباشر الذي تم عن طريق المعايشة والمخالطة اليومية.

ثانيًا ـ ما كان يجري من مجادلات ومحاورات بين العرب المسلمين وأصحاب الديانات والملل والنحل المختلفة، وما كان أكثر ما وجدت من سماحة وحرية حتى داخل المساجد مما أفاد منه المسلمون وتضرروا

١/ الوزراء والكتاب للجهشياري ، مطبعة مصطفي الحلبي ١٩٣٨وانظر الطبري ج٨، ص،٢٥٧.

٢/ المعارف، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (ت: ٢٧٦هـ)،تحقيق: ثروت عكاشة ، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب،القاهرة، ط٢، ١٩٩٢ م ،ص٣٨٣.

٣/ النجوم الزاهرة لابن تغري بردى ـــ المصورة عن طبعة دار الكتب ، ج٢،ص٢٣٣وانظر مروج الذهب ج٢،ص٣٦٦.

من جانب ؛ فتعددت الفرق والمذاهب[١].
ثالثًا ـ الترجمة والنقل؛ وقد نشطت على أيام المنصور، وأهم ذلك الذي ترجم كان من الثقافة الفارسية، واليونانية، والهندية.
وكان لا بدَّ لهذه الثقافات ـ وقد تجمعت في صعيد واحد، وتمازجت في نظام ـ من أن تؤتي أكلها وتؤثر في الحركة الأدبية عامة والشعر على وجه الخصوص.

المبحث الأول
التعريف بالشاعر بشار بن برد
(٩٦ــ ١٦٨هـ)

وهو من مخضرمي الدولتين العباسية والأموية وقد نبغ فيهما ومدح وهجا وأخذ الجوائز السنية مع الشعراء[٢].

اسمه وكنيته ومولده ونشأته:

هو أبو معاذ بشار بن برد بن يرجوخ؛ أحد كبار الشعراء في العصر العباسي. جدُّه يرجوخ أو بهمن من طُخارستان، أسَرَه المهلب بن أبى صُفْرة والى خراسان فيمن أسر، فنشأ ابنه برد على الرق، وجعله في رقيق زوجه التي وهبته لامرأة من بنى عقيل، فيهم وُلِد بشار بالبصرة سنة (٩٦ هـ = ٧١٤ م).

وقد أعتقت المرأة العقلية بشارًا بعد موت أبيه، فأصبح من موالى بنى عقيل. وُلِد بشار أعمى، جاحظ العينين قد تغشاهما لحم أحمر وكان ضخما عظيم الخلق والوجه مجدورا طويلا وهو في أول مرتبة المحدثين من الشعراء المجيدين[٣]. فاتجه إلى حلقات العلم في المساجد يتزود منها، كما انتقل إلى الأعراب في بوادي البصرة؛ ليأخذ اللغة من مصادرها الأصلية. وقد وهبه الله ذكاءً متقدًا، وحافظة لاقطة، فسال ينبوع الشعر على لسانه ولمَّا يبلغ العاشرة من عمره، كما يقول الرواة.

تأثر بشار بثقافات عصره، وتسربت إليه آراء المتكلمين وغيرهم، فنبغ في الشعر نبوغًا متميزًا، حتى عدَّه النقاد أشعر المخضرمين الذين عاشوا في عهد الدولتين الأموية والعباسية، كما عدُّوه رأس المحْدَثين الذى مهَّد لمدرسة البديع في الشعر العربي، وعدُّوا شعره فيصلاً بين القديم والحديث، وجسرًا عبر عليه الشعر من مرابع البداوة إلى ربوع الحضارة.

ويتبع صاحب الأغاني التعريف بقوله": ومحل بشار في الشعر وهو المقدم من الشعراء المجددين، بإجماع الرواة ورياستهم عليهم من غير اختلاف ، وأخذ سني الجوائز مع خاصة الشعراء [٤].

أكثر الشعر وأجاد القول، وهو بصري قدم بغداد، وكان المهدي أمير المؤمنين اتهمه بالزندقة فقتله عليها.

١/ الملل والنحل للشهرستاني ، مطبعة الحلبي،ج١، ص٤٣، وانظر الأغاني ، بتحقيق الأبياري ص٤٩١٧.
٢/ وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر ابن خلكان البرمكي الإربلي (ت: ٦٨١هـ)،تحقيق إحسان عباس، الناشر: دار صادر – بيروت، ط ،ج ١ ،ط ، ١٩٩٤،١٩٠٠، ج١، ص٤٢١
٣/ الوافي بالوفيات، صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله الصفدي (ت: ٧٦٤هـ)،المحقق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، الناشر: دار إحياء التراث – بيروت، عام النشر: ١٤٢٠هـ ٢٠٠٠م ، ،ج١٠، ص ٨٦.
٤/ الشعر والشعراء، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (ت: ٢٧٦هـ)،الناشر: دار الحديث، القاهرة، النشر، ١٤٢٣هـ ، ص ٤٧٧.

أبو حاتم السجستاني، قال: قال لي أبو عبيدة: قيل لبشار: المُرَعَّث؛ لأنه كان يلبس في أذنه وهو صغير رعاثًا، والرعاث القرطة، واحدها رعثة، وجمعها على لفظ واحدها رعثات، ورعثات الديك: المتدلي أسفل حنكه، قال أبو الهندي[١]:

سقيتُ أبا المطرح إذْ أتاني ** وذو الرعثاتِ منتصبٌ يصيحُ

عن أبي طاهر، قال: حدثنا أبو الصلت العنزي، قال: سمي بشار بن برد المرعث بشعره:

من لظبي مرعث ** فاتن العين والنظر

قال لي لست نائلي ** قلت أو يغلب القدر[٢]

أخبرني أبي، عن عبد الرحمن بن المفضل، عن أبي عبيدة، قال: كان بشار يقول الشعر وهو صغير، وكان لا يزال قوم يشكونه إلى أبيه فيضربه حتى رق عليه من كثرة ما يضربه، وكانت أمه تخاصمه، فكان أبوه يقول لها: قولي له يكف لسانه عن الناس، فلما طال ذلك عليه، قال له ذات ليلة: يا أبت لم تضربني كلما شكوني إليك؟ قال: فما أعمل؟ قال: احتج عليهم بقول الله تعالى: " لَيْسَ عَلَى الأَعْمَى حَرَجٌ وَلا عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ"، فجاءوه يوما يشكون بشارًا، فقال لهم هذا القول، فقالوا: فقه برد أضر علينا من شعر بشار.

أخبرني أبو القاسم الأزهري، قال: حدثنا عبيد الله بن محمد بن أحمد المقرئ، قال: حدثنا محمد بن يحيى النديم، قال: حدثنا محمد بن العباس الرياشي، قال: حدثنا أبي عن الأصمعي، قال: قلت لبشار: ما رأيت أذكى منك قط، فقال: هذا لأني ولدت ضريرًا، واشتغلت عن الخواطر للنظر، ثم أنشدني:

عميتُ جَنِينا والذكاءُ من الْعَمى ** فَجِئْت عَجِيب الظَّن للْعلم موئلا

وغاضَ ضياءُ الْعين للْعلم رافداً ** لقلب إِذا مَا ضيعَ الناسُ حَصَّلا

وشعرٍ كنَوْر الرَّوْض لاءَمْت بينهُ ** بقول إِذَا مَا أَحْزَن الشعرُ أسهلا[٣]

قال الأزهري[٤]، قال: حدثنا عبيد الله بن محمد البزاز، قال: حدثنا الصولي، قال: حدثنا الحزنبل، قال: كنا عند ابن الأعرابي، فأنشده رجل لخالد الكاتب: لا رقدت ولم ترث للساهر وليل المحب بلا آخر فاستحسنه، ثم أنشد رجل لبشار:

خليليَّ ما بالُ الدجى ليسَ يبرحُ ** وما لعمودِ الصبحِ لا يتوضحُ

أضلَّ النـــهارُ المستنيرُ طريقهُ ** أم الدهرُ ليلٌ كأنهَ ليسَ يبرحُ

وطـــالَ عليَّ الليلُ حتى كأنهُ ** بليلينِ موصـــولٌ فما يتزحزحُ

فقال ابن الأعرابي للذي أنشده بيت خالد: نح بيتك لا تأكله هذه الأبيات؛ فإن بيتك طفل، وهذه الأبيات سباع.

أخبرنا الحسن بن علي الجوهري، قال: حدثنا محمد بن العباس الخزاز، قال: حدثنا محمد بن القاسم الأنباري، قال: حدثني محمد بن المرزبان، قال: حدثني أحمد بن أبي طاهر، قال: حدثنا أبو الحسن علي بن يحيى بن أبي منصور، قال: كان إسحاق بن إبراهيم الموصلي إذا ذكر بشار بن برد يستصغره، ويحتقره ويعيب شعره، فقلت له: أتعيب شعره، وهو الذي يقول:

إذا كان خراجا أخوك من الهوى ** لا موجهة في كـــل أوب ركـائبه

فخل له وجه الفراق ولا تكـــن ** لالا مطية رحـــــــال بعيد مذاهبه٥

---

١ / البيان والتبيين (١/ ٧١)

٢ / تاريخ بغداد للخطيب ١١٣/٧، نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة (٦/ ٤٧)

٣ / الأغاني ٣/ ١٩٣. ومعاهد التنصيص على شواهد التلخيص (٢/ ٣٠)

٤ / التشبيهات لابن أبي عون ، ص: ٤٥.

٥ / تاريخ بغداد، أبو بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي (ت: ٤٦٣هـ)،تحقيق، الدكتور بشار عواد معروف ، الناشر: دار الغرب الإسلامي ، بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢ م، بشار (٧/ ٦١٠)

وحدثني أبو جعفر قال: قال ابن أبي أفلح: قال رجل لبشار: إن الله عز وجل ما سلب أحداً كريمتيه إلا عوضه عنهما حسن صوت أو ذكاء، فأنت فماذا عوضك من بصرك؟ فقال: عوضني فقدان النظر إلى ابن زانية مثلك منذ أربعين سنة.قال السدري: "كان عمي بشار من أفقه الناس وأعلمهم بكتاب الله.

فعاشر قوماً من الحرانيين فخبث دينه. وكان مفتنا بارعاً، وكان من الشعر بمكان لم يكن به أحد غيره، وكان يقول: ما أعلم شيئاً مما عندي أقل من الشعر.

قال محمد بن يزيد العجلي: سمعت الأصمعي يذكر أن بشاراً كان أشد تبرماً بالناس، وكان يقول: الحمد لله الذي أذهب بصري، فقيل له: ولم ذاك يا أبا معاذ فقال: لئلا أرى من أبغض. وكان يلبس قميصاً له لبنتان فإذا أراد أن ينزعه نزعه من أسفله، وبذلك تسمى المرعث.

فقيل له يوماً وقد أنشد قوله[١]:

كأنَّ مُثار النَّقْع فَوْق رُءوسنا ** وأسْيافُنا لَيلٌ تَهاوَى كَوَاكِبُهْ

ما قيل أحسن من هذا التشبيه، فمن أين لك هذا ولم تر الدنيا قط ولا شيئاً فيها فقال: إن عدم النظر يقوي ذكاء القلب ويقطع عنه الشغل بما ينظر إليه من الأشياء فيتوفر حسه وتذكر قريحته.

وقال أبو العواذل زكريا بن هارون: قال لي بشار: لي اثنا عشر ألف قصيدة في كل قصيدة بيت جيد، وحكي عنه أنه قال: هجوت جريراً فأعرض عني ولو هجاني لكنت أشعر الناس[٢].

شخصية بشار:

هناك جوانب كثيرة أثرت في شخصية بشار منها، المادي والمعنوي والخُلقي والخَلقي، وسنتحدث عن هذه الجوانب بإيجاز؛ وأول ما يطالعنا الخبر الذي رواه صاحب الأغاني ،يقول كان :" كان بشار ضخمًا، عظيم الخلق والوجه جدورًا طويل، جاحظ المقلتين قد تغشاها لحم أحمر؛ فكان أقبح الناس عمى وأفظعهم منظرًا، وكان إذا أراد نشيد صفق بيديه وتنحنح وبصق عن يمينه وشماله، ثم ينشد فيأتي بالعجب، ويقول :" ولد بشار أعمى ــ أكمه ــ فما نظر إلى الدنيا قط ، وكان يشبه الأشياء بعضها ببعض في شعره فيأتي بما لا يقدر عليه البصراء أن يأتوا بمثله"

وتحديدنا للوضع المادي يأتي من هذا الخبر وهو أنه ولد أكمه؛ فالفرق واضح بين الأكمه والذي ولد بصيرًا ، ومن عمي بعد الولادة والنتيجة الحتمية في حياة بشار المؤثرة في واقعه المادي وهي الحرمان من النظر إلى كل الأمور التي تمده بمعطيات قائمة على البصر[٣].

حداثته:

يبدو أن شظف العيش والفقر المدقع والجو الأسري المتواضع أثر في شخصية بشار وهو حدث أضف إلى ذلك مهنة والده؛ حيث كان طيَّانا، وأما أخواه بشر وبشير، فكانا قصابين أحدهما أعرج والآخر ابتر اليد.

وكان بشار ضيق الصدر ومتبرمًا بالناس يقول :" اللهم إني قد تبرمت بالناس جميعًا فارحني منهم" ، وكان يقول:" الحمد لله الذي ذهب ببصري لئلا أرى من أبغض"

ويروي أن بشارًا قال الشعر ولم يبلغ عشر سنين ، وكان يقول: هجوت جريرًا فاعرض مني واستصغرني ولو أجابني لكنت أشعر الناس"[٤]

ونجد بعض أعراب قيس عيلان (كان فيهم بيان وفصاحة) حيث نزلوا في ظاهر البصرة ، كان بشار يأتيهم وينشدهم أشعاره التي يمدح بها قيسًا فيبجلونه لذلك ويعظمونه وكن نساؤهم يجلسن معه ويتحدثن إليه وينشدهن في الغزل وكن يعجبن به.[٥]

---

١ / شرح ديوان المتنبي للعكبري (١/ ١٢٨)

٢ / طبقات الشعراء، عبد الله بن محمد ابن المعتز العباسي (المتوفى: ٢٩٦هـ) ،المحقق: عبد الستار أحمد فراج الناشر، دار المعارف ، القاهرة، ط٣، ص، ٢٣.

٣ / الشعر والشعراء، ص ٤٧٨.

٤ / طبقات الشعراء لابن المعتز ، ص، ٢٣.

٥ / العصر العباسي الأول، د. شوقي ضيف ص، ٢٠٢.

حياته في البصرة وغيرها:

يبدو أن بشارًا قد فشل أن يكون شاعر البلاط الأموي، فأخذ يتصل بالقواد أمل في الوصول إلى الخلفاء ولكن الحظ لم يحالفه في غايته تلك إلا أنه نجح في كسب المال قبل القضاء على الدولة الأموية؛ مما دفعه به في اتخاذ دار جميلة بالبصرة؛ جعل فيها مجلسين: يسمى أحدهما " البدران" والآخر يسمى " الرقيق" وكان يجلس فيهما بالعشي ويعيش عيشة ترف ولهو.

وينتقل بشار إلى حران حيث يقيم سليمان بن هشام بن عبد الملك في سنة ١٢٧هـ ويمدحه بقصيدة بائية؛ فوصله سليمان بخمسة آلاف درهم فلم يرضها ، وانصرف مغضبًا فنظم قصيدة أخرى ينوه ببخله فيها، ورجع إلى العراق إلى واسط؛ حيث يزيد بن هبيرة والي العراق من قبل مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين وزعيم قيس وكان يعظم بشارًا ويقدمه لمدحه وافتخاره بهم إذ كان ولاؤه لبني عقيل القيسي. وتقوم الدولة العباسية سنة ١٣١هـ على أن انقاض الدولة الأموية وينعقد لسان بشار شاعر خصومهم، ولم يتمكن من الاتصال بالسفاح وله بالمنصور ولكنه وفد إلى خالد بن برمك وهو على فارس فمدحه ؛ فأجزل له العطاء[١].

رأي القدماء في بشار:

لقد أجمع النقاد على شاعرية بشار، فهذا الأصمعي يعجب بشعر بشار؛ لكثرة فنون وسعة تصرفه، ويقول كان مطبوعًا لا يكلف طبعه شيئًا يقول البيت ويحككه أيامًا، وكان الأصمعي يشبه بشارًا بالأعشى والنابغة الذبياني.

أما الجاحظ كان يقول:" كان بشارًا شاعرًا خطيبًا صاحب منثور ومزدوج وسجع ورسائل، وهو من المطبوعين أصحاب الإبداع والاختراع المتفننين في الشعر القائلين في أكثر أجناسه وضروبه.

وهذا ابن قتيبة يقول:" وبشار أحد المطبوعين الذين كانوا لا يتكلفون الشعر لا يتعبون فيه، وهو من أشعر المحدثين.

أما ابن المعتز فقد أسهب في تقويمه لبشار بقوله :"كان شاعراً مجيداً مفلقاً ظريفاً محسناً، خدم الملوك وحضر مجالس الخلفاء، وأخذ فوائدهم، وكان يمدح المهدي ويخضر مجلسه، وكان يأنس به ويدنيه ويجزل في العطايا، وكان صاحب صوت حسن ومنادمة، وكان حضر المهدي في مجلس مع جواريه بعث إليه لأجل المسامرة والمحادثة وكان بشار يعد من الخطباء البلغاء الفصحاء وله قصائد وأشعار كثيرة"[٢].

ونختم هذه الآراء برأي ابن رشيق:" وقالوا: أول من فتق البديع من المحدثين بشار بن برد، وابن هرمة، وهو ساقة العرب وآخر من يستشهد بشعره. ثم أتبعهما مقتدياً بهما كلثوم بن عمرو العتابي، ومنصور النمري، ومسلم بن الوليد، وأبو نواس. واتبع هؤلاء حبيب الطائي، والوليد البحتري، وعبد الله بن المعتز؛ فانتهى علم البديع والصنعة إليه، وختم به. وشبه قوم أبا نواس بالنابغة لما اجتمع له من الجزالة مع الرشاقة، وحسن الديباجة، والمعرفة بمدح الملوك. وأما بشار فقد شبهوه بامرئ القيس؛ لتقدمه على المولدين وأخذهم عنه، ومن كلامهم: بشار أبو المحدثين.

وسمعت أبا عبد الله غير مرة يقول: إنما سمي الأعشى صناجة العرب لأنه أول من ذكر الصنج في شعره. قال: ويقال: بل سمي صناجة لقوة طبعه، وحلية شعره، يخيل لك إذا أنشدته أن آخر ينشد معك. ومثله من المولدين بشار بن برد، تنشد

أقصر شعره عروضاً وألينه كلاماً فتجد له في نفسك هزة وجلبة من قوة الطبع؛ وقد أشبهه تصرفاً وضرباً في الشعر وكثرة عروض مدحاً وهجاء وافتخاراً وتطويلاً[٣].

---

١ / البيان والتبيين، عمرو بن بحر بن محبوب الكناني بالولاء، الليثي، أبو عثمان، الشهير بالجاحظ (ت: ٢٥٥هـ)،الناشر: دار ومكتبة الهلال، بيروت، عام النشر: ١٤٢٣ هـ ، ص ١ـــ ٢٤. وبشار بن برد ، عمر فروح، ص٤٠.

٢/ طبقات الشعراء لابن المعتز ،ص، ٢٢.

٣/ العمدة في محاسن الشعر وآدابه، أبو على الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي (ت: ٤٦٣ هـ)،المحقق: محمد محيي الدين عبد الحميد، الناشر، دار الجيل، ط٥،ط٥، ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م ، ج١، ص١٣١.

ويعبر عن رقة شعر بشار وعذوبته وانسيابه وسيرورته ونفهم من هذا أنه شاعر مطبوع يقول الشعر على سجيته دون توعر أو تصنع وتكلف؛ ولهذا شاع شعره بين الناس، وفي كل الطبقات على اختلافها؛ والدليل على ذلك الخبر الذي أورده صاحب الأغاني عن النجم بن النَّظام الذي يقول:" عهدي بالبصرة وليس فيها غزل ولا غزلة إلا بدوي من شعر بشار ولا نائحة ولا مغنية إلا تكتسب به ولا ذو شرف إلا هو يهابه ويخافه معرة لسانه. ويحمل صاحب الأغاني آراء الرواة في بشار بقوله:" محله في الشعر وتقدمه طبقات المحدثين بإجماع الرواة ولرياسته عليهم من غير اختلاف"

رأي بشار في شعره:

رأينا اجماع القدامى على شاعرية بشار، فهل تعرفنا رأيه في شعره ؟ سئل ذات يوم ليس لأحد من شعراء العرب شعر إلا وقد قال فيه شيئًا استنكرته العرب من ألفاظهم وشك فيه وأنه ليس في شعرك ما يشك فيه، فقال:" من أين يأتيني الخطأ ولدت هاهنا في حجور ثمانين شيخًا من فصحاء بني عقيل ما فيهم أحد يعرف كلمة من الخطأ، وإن دخلت إلى نسائهم؛ فنساؤهم أفصح منهم وأيفعت إلى أن أدركت فمن أين يأتيني الخطأ"[١]

ومن القصص الطريفة التي تروى حدثني على بن أبي عبد الله الفارسي، قال: أخبرني أبى، قال: حدثني ابن مهرويه، قال: حدثنا أحمد بن خلاد ، قال: حدثني أبى، قال: قلت لبشار: يا أبا معاذ، إنك لتجيء بالأمر المهجّن . قال: وما ذاك؟ قلت: إنك تقول [٢] :

إِذَا مَا غَضِبنا غَضبةً مُضَرِيَّةً ** هَتكنا حجابَ الشَّمْس أَو قطَرَت دَمًا

إِذَا مَا أعرَنا سيداً من قبيلةٍ ** ذُرى مِنبر صلَّى علـــينا وسلــما

إِلَى أَن تَقول:

ربابَةُ رَبْةُ البيتِ ** تصُبُّ الْخلّ فِي الزَّيْت

لَهَا عَشرُ دجاجاتٍ ** وديكٌ حَسنُ الصَّوْت [٣]

فقال: كلّ شيء في موضعه. وربابة هذه جارية لي، وأنا لا آكل البيض من السّوق، فربابة هذه لها عشر دجاجات وديك، فهي تجمع علىّ هذا البيض وتحظره لي، فكان هذا من قولي لها أحبّ إليها وأحسن عندها من:

قفا نبكِ من ذِكرى حبيبٍ ومنزلِ ** بسِقطِ اللِّوى بينَ الدَّخولِ فحَوْملِ[٤]

ووجدت بخط محمد بن القاسم بن مهرويه، قال: حدثني أبو المثنّى أحمد بن يعقوب ابن أخت أبى بكر الأصم البصرى، قال: قيل لبشار: إذا شئت أن تثير العجاجة أثرتها فيشعرك ثم تقول: ربابة ربة البيت وذكر البيتين. قال: فقال: إنما أخاطب كلّا بما يفهم[٥].

ديوانه:

لم يجمع شعر بشار كما جمع شعر الآخرين؛ فقد ضاع كثير منه ولم يبق إلا اليسير؛ لأن بشارًا يدعي أنه نظم اثني عشر ألف قصيدة وما بين أيدينا من قصائده ومقطوعاته مئات قليلة.

وحقق ديوانه الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، بعد أن جمع شعره من مظانه المتعددة؛ بدأ بتحقيق ثلاثة أجزاء من الديوان انتهت بقافية الراء ثم أتبعها بالجزء الرابع ضم الزيادات إلى وحدها التي وجدها متناثرة في المصادر والمراجع؛ وصدر الديوان في أربعة مجلدات عن لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة عام (١٣٦٩ هـ = ١٩٥٠ م).

---

١ / الشعر والشعراء، ص٤٧٣.

٢ / معاهد التنصيص على شواهد التلخيص (١/ ٢٩٥)

٣ / الأبيات من مجزوء الوافر.

٤ / ديوان امرئ القيس ت المصطاوي ، ص، ١٤.

٥/ الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء، أبو عبيد الله بن محمد بن عمران بن موسى المرزباني (ت: ٣٨٤هـ) ، ص،٣١٦.

وقد أصدر الدكتور/ شاكر كتابًا بعنوان" نظرات في ديوان بشار بن برد" ركز فيه على تصحيح بعض الأخطاء التي وقع فيها المحقق، ومما تجدر الإشارة إليه أنه ما جمع من شعر بشار كان قليل؛ وذلك أن الأصفهاني يروي أن أكثر الناس شعرًا بشار والسيد الحميري وأبو العتاهية وما قدر أحد على جمع شعر هؤلاء؛ لكثرته"[١]

وفاته :

قيل كان بشار يهجو الخليفة المهدي ويصل إليه هذا الهجاء عن طريق وزيره يعقوب بن داؤود الذي طاله الهجاء أيضًا. وقيل: كان سبب قتل بشار أن صالح بن داود لنا ولي أخوه يعقوب بن داود وزير المهدي البصرة قال يهجوه:

هم حملوا فوق المنابر صالحاً ** أخاك فضجت من أخيك المنابر

فبلغ ذلك يعقوب بن داود فسعى فيه بما تقدم. وانحدر إلى البصرة في سنة ١٦٧هـ ، فلما بلغ البصيحة سمع أذانًا في وقت ضحى النهار؛ فإذا بشار يؤذن سكرانًا فأمر بضربه بالسوط فيبست يديه فلما بلغ سبعين سوطًا بان الموت فيه، فألقي في سفينة حتى مات، ولما مات ألقيت جثته في البطيحة في موضع يعرف بالجرار فحمله الماء فأخرجه إلى دجلة، فجاء بعض أهله فحملوه إلى البصرة لدفنه؛ قال النوفلي:" فأخرجت جنازته فما تبعه أحد إلا جارية سوداء سندية عجماء رأيتها خلف جنازته تصيح: واسيداه، ما تفصح؛ ولما نعي لأهل البصرة تباشر عامتهم وهنأ بعضهم بعضاً، وحمدوا الله وتصدقوا ما كانوا قد بلوا به من لسانه.

وكانت وفاته وقد ناهز تسعين سنة، ودفن بالبصرة في سنة سبع وقيل ثمان وستين ومائة، رحمه الله تعالى. وكانت وفاته وقد ناهز تسعين سنة، ودفن بالبصرة في سنة سبع وقيل ثمان وستين ومائة، رحمه الله تعالى.

ولما توفي تذكره المهدي وحسن معاشرته له. كان أنيس مجلسه وقد كان معجباً به وبشعره، وكان يدنيه، وكان بشار كفيفاً قبل موته بأربعين سنة، ولهذا كان يحضر المجلس والجواري عند المهدي لكونه لا يبصرهن. وحكى أن المهدي لما قتل بشاراً ندم على قتله وأحبّ أن يجد شيئاً يتعلق به، فبعث إلى كتبه، فأحضرها وأمر بتفتيشها طمعاً في أن يجد فيها شيئاً مما حزبه عليه، فلم يجد من ذلك شيئاً، ومرّ بطومار مختوم، فظن أن فيه شيئاً، فأمر بنشره، فإذا فيه: بسم الله الرحمن الرحيم، إني أردت أن أهجو آل سليمان بن علي بن عبد الله بن العباس، فذكرت قرابتهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله، فمنعني ذلك من هجوهم، ووهبت جرمهم لله عز وجل، وقد قلت بيتين لم أذكر فيهما عرضًا ولم أقدح في دين، وهما:

دينار آل سليمـــان ودرهمهم ** كالبابليين شدّاً بالعفـــاريت

لا يوجدان ولا يرجى لقاؤهما ** كما سمعت بهاروت وماروت

فقال: الآن والله صح الندم[٢].

شعره وخصائصه:

نبغ بشار في الشعر من سن السابعة ، وقيل في سن العاشرة[٣]، ومال في ذلك الوقت إلي شعر الهجاء حتى شكاه الناس لوالده ؛ فضربه ضربًا مبرحًا، ولما بلغ الحلم كان قويًا مجيدًا للشعر فبلغ قدره وصيته بين الشعراء، وكان يخشاه الناس، وأجمع النقاد القدامى والمحدثين على أنه شاعر مطبوع لا يكلف نفسه المشقة والعناء في قول الشعر وإنما يترجل ارتجالا، واتفق الشعراء والنقاد على أن بشارًا رئيس طبقة المحدثين ويعد شعره وسطًا بين القديم والحديث في خلوه من التعقيد وسلامته من الخلل. وقال عنه ابن قتيبة :"وكان بشار أستاذ أهل عصره من الشعراء غير مدافع، ويجتمعون إليه وينشدونه ويرضون بحكمه"[٤].

---

١ / بشار بن برد، عمر فروخ، ص،٤١.

٢ / طبقات الشعراء، لابن المعتز ، ص٢٢.

٣ / الشعر والشعراء، ص، ٤٧٧.

٤ / طبقات الشعراء، ابن المعتز ج١، ص٢٦.

امتاز شعر بشار بقوة الأسلوب؛ ونعني بالأسلوب اللغة وكل ما يتعلق بها من الجزالة والسهولة وفخامة البناء، وبراعة الصياغة؛ فعرف بفصاحة ألفاظه وبعدها عن الخطأ؛ فليس في شعره ما يشك فيه.

دقة الوصف و التصوير:

أمتاز شعر بشار بالنظرة العميقة والعقلية الجادة ، والقريحة الغنية ، والعاطفة القوية، والإحساس المرهف؛ وكل ذلك بسبب خياله الخصب الواسع؛ فكان دقيق الوصف والتصوير، وأحسن الإتيان بهم فكان أفضل من البصراء، فحرمانه من النظر إلى الاشياء جعل معطياته تركز على البصر الذي يفقده.

ومما يستحسن لبشار، لإحكام رصفه، وحسن وصفه كلمته التي يقول فيها بيته الذي ذكرناه في التشبيه، فأولها:

جفا جفـوة فازور إذ مَّل صـاحبـه ** وأزرى به أن لا يــزال يصاحبه
خليلي لا تستكثرا لوعة الهـــوى ** ولا لـوعة المحزون شطت حبائبه
شفي النفس ما يلقى بعبدة مغرماً ** وما كـــان يلــقى قلبه وضرائبه
فأقصر عــن داعي الفـؤاد وإنـما ** يميل به أمس الهـــوى ويطالبه
أخــوك الذي إن ربته قــال إنــما ** أربـــــت وإن عاتبته لان جـانبه

ثم يصل قمة الفخر فيقوله:

إذا المـلك الجبــار صعر خدّه ** مشينا إليه بالسيــوف نعاتبـــــه
كأن مثار النقع فوق رءوسنا ** وأسيافنــا ليل تهـــاوت كـواكبه[1]

ما قيل أحسن من هذا التشبيه، فمن أين لك هذا ولم تر الدنيا قط ولا شيئاً فيها فقال: إن عدم النظر يقوي ذكاء القلب ويقطع عنه الشغل بما ينظر إليه من الأشياء فيتوفر حسه وتذكر قريحته. ومن وصفه البديع لإحدى المغنيات قوله[2]:

وصفراءُ مثل الخيزرانة لم تعشْ ** ببؤس ولم تركب مــطية راعِ
تصلِّي لهـا آذاننا وعـــــيوننا ** إذا ما التقينا والقلـــوبُ دواعِ
جرى اللؤلؤ المكنون فوق لسانِها ** لزوَّارها من مـــزهرٍ ويَرَاعِ
إذا قلدت أطرافها العــود زلـزلت ** قلوبًا دعـــاها للوساوسِ داعِ
كأنهم في جنة قـــــد تلاحـقت ** محـــاسنُها من روضةٍ ويفاعِ

وفي كل مكان من غزله نجد أثر الحضارة في رقة حِسِّه؛ سواء حين يصف حنينه وحرمانه وصدود محبوباته أو حين يصور لقاءه لهن ووداعهن أو ذكرياته معهن على شاكلة قوله[3]:

لقد كان ما بيني زمانًا وبينها ** كما بين ريحِ المسكِ والعنبرِ الوردِ

وقوله[4]:

عندها الصبر عن لقائي وعندي ** زفرات يأكلن قلب الجليدِ

التنويع في الموضوعات الشعرية:

أمتاز شعر بشار بكثرته وجودته؛ مما جعله يتربع على فحولة الشعر، وتفوق على شعراء عصره واحتلَّ مكانة رفيعة لدي النقاد، وكما عرف النقاد أن الشعر يجب أن تتلازم جودته مع كثرته؛ فكثرة الشعر من غير جودة لا تجعل صاحبها يتبوأ مكانة المتقدمين من الشعراء المجودين أخروا أنفسهم بسبب قلة أشعارهم. وبشار مع كثرة أشعاره تعددت موضوعاته؛ فنظم في كل ضروب النظم المعروفة من مدح وهجاء وغزل ووصف وفخر ورثاء.

إن كثرة الشعر والجودة ميزتان أساسيتان في جعل الشاعر يتربع على فحولة الشعراء ، ويحتل مكانة عالية رفيعة لدى النقاد؛ فهذا بشار استطاع أن يتفوق على شعراء عصره لكثرة شعره وجودته.

---

١ / طبقات الشعراء لابن المعتز ، ص، ٢٨.
٢ / أمالي المرتضى، ج ٢، ص، ١٣٩.
٣ /أمالي المرتضى ج٢، ٦٤، والديوان،ج٢ ٣١٤.
٤ / الديوان ،ج٢/ ٢٧٢. الفن ومذاهبه في الشعر العربي ، ص ، ١٥٧.

ولم تكن كثرة الشعر وحدها ؛ أي من حيث الكم ـــ قادرة على جعل صاحبها يتبوأ مكانة بين المتفوقين والمتقدمين على الشعراء؛ ولم تكن الجودة أيضًا وحدها تكفي لتلك المكانة ، بل لا بد من تلازم الكثرة مع الجودة حتى يصل صاحبها إلى المنزلة العالية الدقيقة المنشودة، ونجد كثرة من الشعراء المجوِدين قد أسقطوا من مراكزهم وأخروا عن مكانتهم لقلة أشعارهم، وكذلك نجد المكثرين الذين همهم الكمَ وليس الكيف ولم يحرصوا على الاعتناء بجودة أشعارهم.[١]

وكان الأصمعي[٢] يقول:" بشار خاتمة الشعراء والله ولولا أن أيامه تأخرت لفضلته على كثير منهم. ولقي أبو عمرو ابن العلاء بعض الرواة فقال: يا أبا عمرو من أبدع الناس بيتاً فقال: الذي يقول:

لمْ يَطُلْ لَيلي، وَلكِنْ لمْ أَنَمْ، ** وَنَفَى عَنِي الكَرَى طَيفٌ أَلَمّ
خَتَمَ الحُبُّ لهَا في عُنُقي، ** مَوْضِعَ الخَاتَمِ من أهلِ الذِّمَمْ
إنّ في ثَوْبيّ جِسْماً نَاحِلاً ** لَوْ تَوَكّأتُ عَـلَيْهِ لانْهَـــدَمْ

قال: فمن أمدح الناس قال: الذي يقول:

لمسْتُ بكفّي كفَّهُ أبتغي الغِنى ... ولم أدرِ أنّ الجودَ من كفِّه يُعدي
فلا أنا منهُ ما أفادَ ذوو الغِنى ... أفدْتُ، وأعْداني فأتلَفْتُ ما عندي

قال: فمن أهجى الناس قال: الذي يقول:

رأيت السهيلين استوى الجود فيهما ** على بُعد ذا من ذاك في حكم حاكم
سهيل بن عثمان يجود بمـــــــاله ** كما جـــاد بالوجعا سهيل بن سالم

قال: ويحك هذه الأبيات كلها لبشار.

وحدَث الأصمعي قال: قلت لبشار: يا أبا معاذ، الناس يعجبون من أبياتك في المشورة، قال: يا أبا سعيد إن المشاور بين صواب يفوز بثمرته، أو خطأ يشارك في مكروهه، فقلت له: أنت والله في قولك أشعر منك في شعرك.

وقيل لبشار: ما لكم معشر الشعراء لا تكافؤون بقدر مديحكم قال:" لأنا نكذب في العمل فنكذب في الأمل؛ ومثل هذا قيل لأبي يعقوب الخزيمي محمد ابن منصور بن زياد: شعرك في مديحك أجود من شعرك في مرائيك، قال: إن ذلك للرجاء وهذا للوفاء وبينهما بون".

نبوغ شعره:

لم يشأ بشار أن يكون شاعر الخاصة فحسب بل شاعر العامة أيضًا، وقد حرص على صيرورة شعره بين القبائل وشيوعه بين الناس؛ وذلك عن طريق بساطته في التصوير والبعد عن التكلف والإغراق في غريب الألفاظ، والمعنى والوضوح في المعاني والسهولة في التراكيب، واختيار الألفاظ المأنوسة المتداولة؛ كل ذلك تصاحبه الموسيقى التي تعتمد على الأوزان القصيرة، والحركات الخفيفة[٣].

والدليل على ذلك الخبر الذي أورده صاحب الأغاني عن النجم بن النَّظام الذي يقول:" عهدي بالبصرة وليس فيها غزل ولا غزلة إلا بدوي من شعر بشار ولا نائحة ولا مغنية إلا تكتسب به ولا ذو شرف إلا هو يهابه ويخافه معرة لسانه. ويحمل صاحب الأغاني آراء الرواة في بشار بقوله:" محله في الشعر وتقدمه طبقات المحدثين بإجماع الرواة ولرياسته عليهم من غير اختلاف" ويفهم من ذلك أن الناس قد شغفوا بشعره وأن الموسيقيين انتظروا جديد نظم والملحنين حرصوا على رسم لحنه، والجواري والمغنيين عشقوا غناء فنه.

يقول ابن المعتز[٤]:" ولا أعرف أحداً من أهل العلم والفهم دفع فضله ولا رغب عن شعره. وكان شعره أنقى من الراحة، وأصفي من الزجاجة وأسلس على اللسان من الماء العذب. ومما يستحسن من شعره - وإن كان كله حسناً - قوله:

---

١ / البيان والتبين ، ص٢٨,٢٤.وطبقات الشعر ، لابن المعتز، ص ٢٨.
٢/ وفيات الأعيان ،ج١، ٤٢٣. ومصارع العشاق (٢/ ١١٧)، وانظر الوساطة بين المتنبي وخصومه ، ص: ٢٢٣.
٣ / البيان والتبين، صفحتي:٢٤و٦٨.
٤ / طبقات الشعراء لابن المعتز، ص، ٢٩

أمــن تجنّي حبيب راح غضبـــانا ** أصبحت في سكرات الموت سكرانا
لا تعرف النوم، من شوق إلى شجن ** كأنــما لا ترى للنــاس أشــجانا
أود من لــم ينلني مـن مـــودته ** إلا سلاماً يــردّ القلـــب حيرانا
يا قـــوم أذني لبعض الحيّ عاشقة ** والأذن تعشق قـــبل العين أحيانا

شاعر مطبوع:

أجمع النقاد القدامى والمحدثين على أن بشارًا شاعر مطبوع لا يتكلف في شعره. والمطبوع من الشعراء من كان لا يكلف نفسه المشقة بنظم الشعر؛ وإنما يترك لها العنان عما يجول فيها ، فتدفق بالمعاني العميقة الموحية والصور الجميلة، الألفاظ المنسجمة مع المعاني دون كد قريحة أو إرهاق فكر ؛ لعل السبب في ذلك يعود لحياته البدوية التي تركت بصماتها الواضحة على شعره إلى جانب مواكبته الحضارة مواكبته لعصرين مختلفين: هما العصر الأموي والعصر العباسي، وقد نجح بشار في المزاوجة بين حياة البداوة التي ألفها وجمال الحضارة التي عشقها ؛ يقول الأصمعي :" كان مطبوعًا لا يكلف نفسه شيئًا متعذرًا لا كمن يقول البيت ويحكه أيامًا.

نجد الجاحظ كان يقول:" كان بشارًا شاعرًا خطيبًا صاحب منثور ومزدوج وسجع ورسائل، وهو من المطبوعين أصحاب الإبداع والاختراع المتفنيين في الشعر القائلين في أكثر أجناسه وضروبه.

وهذا ابن قتيبة يقول:" وبشار أحد المطبوعين الذين كانوا لا يتكلفون الشعر لا يتعبون فيه ، وهو من أشعر المحدثين. ويقول ابن رشيق:" بشار أبو المحدثين إذا نشد أقصر شعره عروضًا وألينه كلامًا؛ فإنك تجد له في نفسك هزة وجلبة من قوة الطبع"[١]

عُرف بشار بسرعة بديهته وحسن جوابه وارتجاله في نظمه، ويتضح أن بشارًا أنه يفتخر بنظمه الشعر ارتجالا. ويدل على ذلك ما روي ابن المعتز": واطلع المهدي يوماً على بعض جواريه، وهي عريانة تغتسل، فأحست به، فضمت فخذيها، وسترت متاعها بكفيها، فلم يشملاه، حتى انثنت فسترته بعكن بطنها، فخرج المهدي ضاحكاً، وبشار في الدار، فقال: أجز هذا البيت. " أبصرت عيني لحيني " فقال بشار على البديهة:

نظرت عَيْني لحيني ** منْظرًا وَافق شيني
سترته إذْ رأتنـــــي ** تَحت بطن الراحتين
فبدت مِنْـــهُ فضول ** لن توارى باليديـن
فانثنت حَتَّى تــوارى ** بَين طـي العكنتين

فقال المهدي: والله ما أنت إلاّ ساحر، ولولا أنك أعمى لضربت عنقك، ولقد حكيت الأمر على وجهه حتى كأنك رأيته، ولكني أعلم أن ذلك من فرط ذكائك، وجودة فطنتك[٢].

المبحث الثاني
الثقافات الأجنبيَّة الوافدة

كان العرب قبل الإسلام أمة أميَّة، لا تعرف القراءة والكتابة إلا في نطاق ضيق، ولم يكن الذين يعرفونها في «مكة» لا يزيدون عن عشرين شخصًا، ومع ذلك فإنهم امتلكوا قدرًا لا بأس به من المعرفة، واتصلوا بالعالم الخارجي من خلال رحلاتهم التجارية، فعرفوا الثقافة الفارسية عن طريق إمارة «الحيرة» العربية، والثقافة اليونانية عن طريق الإمارات العربية في «الشام» كما عرفوا الثقافة الهندية وغيرها من الأمم والشعوب. وبعد ظهور الإسلام قويت صلتهم بالعالم الخارجي؛ بسبب نشرهم للدعوة الإسلامية؛ وأصبحت تزداد هذه الصلات يومًا بعد يوم إلى أن وصلت ذروتها في العصر العباسي. وسوف نتحدث عن أهم هذه الثقافات.

أولًا ـ الثقافة الفارسية:

---

١ / طبقات الشعراء، ص٣٠.
٢ / نفسه ، ص، ٢٤.

صلة العرب بالأمة الفارسية قديمة تعود إلى ما قبل الإسلام بسبب الجوار؛ وقد أدى ذلك إلى توثيق الروابط السياسية والاقتصادية، فكانت الفرس تحكم العراق وما جاورها منذ أن جمع شملهم قوروش الكبير (٥٥٧ ـ ٥٢٩ ق.م) ، ولم يكن أحد يناوئهم ؛ حتى قام الإسكندر المقدوني فهزم ملكهم دارا الأول وكسرت شوكتهم وتجزأت بلادهم وتولاها ملوك يعرفون بملوك الطوائف، وفي عهد هؤلاء الملوك احتلَّ القحطانيون جزءًا من ريف العراق.

كان لهذا الاتصال أثره في كل الأمتين ، وبالتنقيب في مدونة الشعر الجاهلي؛ نجد أن اللغة الفارسية حضورها الأكبر في هذه المدونة من بين كل اللغات؛ فهذا الأعشى يستخدم في قاموسه الشعري ألفاظًا فارسية صرفية أو يغير بعض حركاتها، وعرب بعضها الآخر بأن جعله يجري على الأوزان العربية وكذلك شأن الشاعر لقيط بن يعمر، وطرفة العبد ، وعلقمة العبد ، وعبيد بن الأبرص[١].

وحين أنبثق نور الإسلام، وخضعت بلاد الفرس للحكم الإسلامي في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه ٤١ هـ.؛ اعتنق أبناء الفرس العقيدة الجديدة، وتبادل العرب والفرس العقيدة الهجرة دون قيود وحذق كل لغة الآخر[٢].

واستمر الحال في حتى الدولة الأموية؛ ولما جاءت الدولة العباسية انتشرت الثقافة الفارسية؛ لأن العصر العباسي اتخذ منحى فارسي نظرًا لعوامل أهما:

١ـ توغل الفرس في صلب الدولة العباسية؛ فكان منهم الخلفاء والأمراء.

٢ــ أدخلوا النظم الإدارية الفارسية في جميع شؤون الحياة، وتجدر الإشارة إلى ضياع كثير من الجوانب السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية للدولة إلى رمي المغول الكثير من الكتب في نهر دجلة.

ففي هذا العصر العباسي الأول انتشرت الثقافة الفارسية انتشارًا عظيمًا، وساعد على ذلك أمران:

الأول : إنشاء منصب الوزارة، واسناده غالبًا إلى الفرس.

الثاني :انتقال عاصمة الخلافة من دمشق إلى بغداد؛ وبعبارة أخرى من الشام إلى العراق[٣]؛ فقد كان أغلب الوزراء موالي فرسًا، فأبو سلمة الخلال (أول وزير عباسي ، مولى فارسي) ، وأبو أيوب المورياني، وزير المنصور، كان فارسيًا ، ويعقوب بن داؤود وزير المهدي ، مولى كذلك، وكذلك يحيي بن خالد وزير الرشيد، واستوزر المأمون بني سهل، وكانوا من أولاد ملوك الفرس، وكان منهم قواد وحجاب وولاة وكتَّاب[٤].ونشطت الحركة العلمية في العصر العباسي وأخذ طائفة ممن يجيدون اللسانين الفارسي والعربي ينقلون الكتب من الفارسية إلى العربية.

وهناك طائفة اسمها طائفة الكتَّاب ، تؤلف وحدة على رأسها الوزير بل تتدرج في الرقي إلى الوزارة معتمدة على كفاءتها وبلاغتها، فقد وقَّع عمرو بن مسعدة على ورقة رفعت إلى جعفر بن يحي فاعجب بتوقيع عمرو فضرب يحي على ظهر عمرو ، وقال : إني وزير فتى جلدك"

وكان لهؤلاء الكتَّاب أثر كبير في نشر نوع هذه الثقافة الفارسية؛ لأن ثقافتهم كانت أوسع من ثقافة غيرهم ، وحسب تجاربهم كان يعرفون أحوال الناس الاجتماعية وتقاليدهم، وثقافتهم الواسعة من اللغة والأدب وعلوم الدين والفلسفة والتاريخ.[٥]

وقد كان للثقافة الفارسية أثرًا كبيرًا على الحياة الأدبية شعرًا ونثرًا؛ تمثل:

١ ـ اللهو والمجون: لقد كان اللهو والمجون والعبث بكل ألوانه وصوره ، كالإفراط في الشراب والأكل ، والصلات الجنسية المثلية شائعة عندهم؛ وكانت الحياة اللّاهية التي كان يحياها الفرس؛ قد نتجت أدبًا مكشوفًا تناوله النقلة من الفارسية إلى العربية؛ فكان له أثره السيء في إشاعة المجون في العصر العباسي ؛ إذ اندفع الشعراء يعبرون عن مشاعرهم في كلمات عارية وألفاظ نابية، وأخذوا يجهرون بما لم يجهروا به سابق.

---

١ / تاريخ الأمم والملوك، محمد بن جرير الطبري، تحقيق محمد أبو الفضل، دار المعارف، ط٢، ١٩٧٢م، ج١ص١٩٩.

٢ / حديث الأربعاء، طه حسين، دار المعارف،ط٩،ج٢،ص٢٧.

٣ / ضحى الإسلام، أحمد أمين، لجنة تأليف والترجمة والنشر، ط١، ج١، ص١٦٤.

٤ / تاريخ الأدب العربي، مصطفي السباعي بيومي، مطبعة العلوم، ط٢، ١٩٣٧م ، ص٢٥٠.

٥ / تاريخ الأدب العربي، للسباعي ، ص٢٥٠.

وتولى الأدباء والشعراء من أصل فارسي بِكبر هذا الإثم، وأخذ كل واحد منهم بطرف؛ كما نرى ذلك عند شاعر الخلاعة بشار بن برد.[١]

٢ ـ في نزعة الزهد المتطرف؛ الذي فيه نزعة مانوية. فنجد في الشعر ما يمثلها إلى مدى بعيد؛ ففيه الدعوة للاعتزال والهروب انقطاعا للعبادة والدراسة؛ نحو قول الشاعر:

رغيفُ خُبْزٍ يَابِسٍ ** تأكــله في زاويَهْ
وكــوز مــاء بارِدٍ ** تشربه من صافيهْ
وغـــرفةٌ ضيِّقَةٌ ** نفسُك فيها خاليهْ
خيرٌ من الساعات في ** ظلِّ القصور العاليهْ[٢]

٣ ـ في الزندقة والشعوبية؛ كلتاهما نتاج فارسي خالص، وكان بدهيًا أن يكون لهذا التأثير في المجتمع العباسي وفي الشعر والنثر، واشتهر جماعة من الكتّاب والشعراء أنهم زنادقة ، أو أنهم شعوبيون، وسوف نتحدث عنهم في أدب الزندقة والشعوبية.

٤ ـــ في القصص والحكايات؛ وكان مما ترجم إلى العربية من الفارسية عددا كثيرًا من الكتب منها: كليلة ودمنة، وهزار إفسانة، ورستم، وبهرام شوس، والدب والثعلب **إلخ. وقام بذلك أبناء الفرس الذين اتقنوا اللغتين، أمثال ابن المقفع الذي ترجم كليلة ودمنة.

ومن الغلاة في ذلك "إنيسترانسيف"، فقد أكبر في كتابه "الأثر الإيراني في الأدب الإسلامي" من شأن هذه الثقافة، وتأثيرها في العرب معتمدًا في ذلك على ما يحصيه ابن النديم في فهرسته من أسماء الكتب الفارسية المترجمة، وهي كثيرة هناك كثرة غامرة، إلا أن هذه الكثرة يجب أن نحذرها، فالمسألة مسألة كيف لا كم، وربما كانت أهمية هذه الثقافة لا ترجع إلى ما ترجم للفرس أنفسهم، وإنما ترجع إلى ما ترجم إلى لغتهم عن غيرها، فقد كانت وسيطا مهما في نقل كثير من آداب الهند، ومعارفها مثل كتاب كليلة ودمنة الذي نقله ابن المقفع، وكذلك كانت وسيطا في نقل بعض الكتب اليونانية مثل منطق أرسطو الذي ترجمه عبد الله بن المقفع، أو ابنه، على أنه ينبغي أن نشير إلى أنه دخل عن طريق الترجمة من الفارسية كثير من تعاليم الفرس الدينية القديمة عند "زرادشت" و"ماني" "ومزدك"، بل ترجموا كتاب "زرادشت" المسمى أفستا كما ترجموا كتبا أخرى لماني ومزدك، مما كان سببا في ازدياد جماعة الزنادقة، وكانوا يتظاهرون بالإسلام، ويبطنون أديانهم المجوسية القديمة، وكانت عين الدولة يقظة، فأقام المهدي ديوانا خاصا بمحاكمتهم، وقتل ابن المقفع وكثيرون غيره. وقد انبرى علماء الكلام، وخاصة المعتزلة يردون على هؤلاء الزنادقة، وما زعموا من إثنينية ومذاهب دهرية.[٣]

ثانيًا : الثقافة الرومانية

إن العلاقة القائمة بين العرب وغيرهم من الأجانب لم تقتصر على الفرس، بل كانت لهم علائق وطيدة بينهم وبين اليونان، والهنود، والسريان، وغيرهم. فاتصال العرب باليونان وبثقافتهم بعد قيام الدولة الإسلامية يمكن تقسيمه إلى قسمين:

١ ـ الاتصال الناشئ عن امتزاج الأجناس، وما يترتب عليه من نتائج هامة تنقل لكل طرف من الطرفين المتمازجين لثقافة الآخر، وما لديه من تصورات للأمور والأشياء، وذلك أن الجنس العربي قد اتصل بالجنس الروماني في الحياة الاجتماعية يعيشون في أجواء هؤلاء القوم من ألوان الفن والغناء، وكانت قصور الخلفاء والأمراء، ودور الأغنياء والشعراء والعلماء تعج بالخدم والغلمان والجواري والرقيق من الروم، بل رأينا عددًا من أمهات الخلفاء كن من هذا القبيل؛ فلقد كانت الخيزران أم الهادي والرشيد رومية، وكانت قراطيس أم الواثق رومية أيضًا.

---

١ / الفهرست، أبو الفرج محمد بن إسحاق بن محمد الوراق البغدادي المعتزلي الشيعي المعروف بابن النديم (ت ٤٣٨ هـ)،تحقيق إبراهيم رمضان، الناشر، دار المعرفة بيروت – لبنان،ط٢، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ مـ ، ص٣٤٢.

٢ / ديوان أبي العتاهية ، جمعه وحققه لويس شيخو ، طبعة بيروت ،ص٣٠٧.

٣ / الفن ومذاهبه في النثر العربي، أحمد شوقي عبد السلام ضيف الشهير بشوقي ضيف (ت: ١٤٢٦هـ)،الناشر، دار المعارف، ط١٣ ، ص، ١٢٣

وكانت من أسباب الاتصال المباشر تلك الحروب التي كانت متصلة مشبوبة الأوار وخصوصًا أيام الرشيد، فقد كان لهذه الحروب ضحايا من الأسرى والرقيق لدي الطرفين، فالأسرى الروم يحملون إلى بغداد، وأسرى المسلمين يحملون إلى القسطنطينية؛ فلابد من أن يدفع كل طرف إلى التقاط شيء من لغة الآخر، ولا بد أن يقتبس كل طرف أشياء؛ فالأسرى الروم يحملون إلى بغداد، وأسرى المسلمين يحملون إلى القسطنطينية؛ فلابد من أن يدفع كل طرف إلى التقاط شيء من لغة الآخر، ولا بد أن يقتبس كل طرف أشياء كثيرة تتصل بحياة الآخر.[١]

٢ ـ حركة الترجمة

كانت حركة الترجمة اليونانية العربية، حركة واسعة قامت في أواخر الفترة الأموية، وفي العهد العباسي الأول ، وفيها تم ترجمة كتب كثيرة في الرياضيات والفلك والطب والفلسفة الإغريقية من اللغة اليونانية إلى اللغة العربية.

اتصفت حركة الترجمة بشموليتها وتمويلها الجيد وكانت أيضًا جهدًا مستمرًا مسؤول عن ترجمة قدر كبير من النصوص اليونانية العلمانية إلى العربية.

استمرت حركة الترجمة العربية في التطور خلال العصر العباسي وتضمنت الفترة العباسية إحدى العلامات الحاسمة للغاية في تاريخ الحركة ؛ فترجمة النصوص الدينية الرئيسة للقرآن الكريم. نجحت الحركة في تشكيل تداخل حضاري وبدأت خرائط جديدة تشكل في مجالات الثقافة الإنسانية والسياسية، وشارك الحكام الإسلاميون في الحركة بطرق عديدة مثل : إنشاء طبقات للترجمة؛ لتسهيل تدفقها طوال المراحل المختلفة للإمبراطوريات الإسلامية.

قبل الإسلام لم يكن هناك نظام الكتابة العربية؛ استطاع العرب تعلم لغات مختلفة مثل: السريانية والآرامية للتواصل الفعَّال في الرحلات التجارية التي كانت تسمى رحلة الشتاء والصيف، وتقودها عادة قريش، وترجع الترجمة للقرن الثاني ، وهو الوقت الذي يتعقد فيه أن السريان قد حولوا عاداتهم الوصلية، وكذلك معتقداتهم إلى اللغة العربية، و بلغت الترجمة ذروتها في عهد المأمون(ت ٢١٨ه)وتحديدًا في بيت الحكمة في بغداد.

ينحصر تأثير الثقافة اليونانية في هذا العصر في المفردات؛ فقد عربت بعض ألفاظ يونانية ، اضطر المترجمون لتداولها وأكثر ذلك في أسماء العقاقير والأدواء مما لم يكن له نظير في العربية مثل : البقدونس، والزيزفون، والسقمونيا، وأسماء الأمراض، مثل: الترياق والمنخوليا، والمصطلحات الفلسفية مثل: الطلسم والسفسطة، والقانون والقاموس[٢].

وكان لها أثر في القصص والحكايات، والحكم والأمثال؛ فهناك كثير من الحكم تنسب لحكمائهم مثل أفلاطون وسقراط، وفيثاغورث وأرسطو وجالينوس نجده منثورًا في أمهات الكتب العربي مثل : الحيوان والبيان والتبين للجاحظ، وعيون الأخبار لابن قتيبة[٣].

وإذا تتبعنا الثقافة اليونانية وجدنا علاقتها بالشعر والشعراء تفوق علاقتي تلك الثقافتين الفارسية والهندية، وحقًا أنهم لم يعرفوا شيئًا عن الشعر اليوناني؛ إذ اقتصرت معرفتهم بالثقافة اليونانية على الفلسفة والمنطق، ولكن هذه المعرفة أفادوا منها فوائد جُلّي؛ فقد دعم المنطق تفكيرهم ووسعت الفلسفة دوائره، فانصبغ عقل الشعراء بأصباغ من العمق والدقة والتحليل وطرافة التقسيم والبعد في الخيال والتجريد فيه وكان المتكلمون أهم من أذاع هذه الثقافة في محيط الشعر والشعراء؛ إذ كانوا يتأثرون بها تأثرًا واسعًا في جدالهم وأساليب استدلالهم، فأكبوا عليها يقرؤونها، وينقلون مصطلحاتها، ويفسرون معانيها من مثل الطفرة.

لقد أفادت الثقافة اليونانية في الأدب العربي:

---

١ / الأغاني المصورة، دار الكتب،ج٣، ص٢٧٦.

٢ / تاريخ آداب اللغة العربية، جورجي زيدان، دار الهلال،١٩٥٧م، ج١،ص٤. وضحى الإسلام ج١، ص٢٩٦.

٣ / الفهرست، أبو الفرج محمد بن إسحاق بن محمد الوراق البغدادي المعتزلي الشيعي المعروف بابن النديم (ت: ٤٣٨هـ)، تحقيق: إبراهيم رمضان، الناشر: دار المعرفة بيروت – لبنان،ط٢، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ مـ، ص٣٠٥ وما بعدها.

١ ـ الدقة والتحديد والتحليل في المعاني.
٢ ــ استخدام البراهين العقلية ، والأقيسة المنطقية، وحسن التعليل.
٣ ـ تمحيص الأفكار ومراعاة ترتيبها وتسلسلها، والاجتهاد في أن تجي عناصر الفكرة مرتبة منسقة؛ بحيث يُسلم الغرض إلى أخيه الذي يليه.

ولعل أهم ما أفاده الأدب من ثقافة اليونان هو ما خلفه منطقهم وفلسفتهم في المعاني، ولعل خير من يمثل هذا هم أدباء الاعتزال، ومن كان على صلة بهم من الأدباء والشعراء، من أمثال النَّظّام وأبي نواس، وبشر بن المعتمر، وصفوان الأنصاري.[١]

ثالثًا ــ الثقافة الهندية

وعلى نحو ما كانت العلاقات قائمة بين الشعراء والثقافة الفارسية كذلك كانت قائمة بينهم وبين الثقافة الهندية؛ فقد كانوا يعرفون ما نقل عنها في الفلك وغير الفلك وقد تسرب إليهم كثير من آراء الهنود وأفكارهم وقصصهم كقصة بوذا الملك الذي هجر ملكه، وساح في الأرض عابدًا لربِّه؛ فقد اتخذ منه أبو العتاهية مثالًا للرجل الفاضل فقال٢:

يا من تشرّف بالدنيا وزينتها ** ليس التشرّف رَفْعَ الطين بالطين
إذا أردت شريف الناس كلهم ** فانظر إلى ملكٍ في زي مسكينِ

ونقل إليهم ما تزعمه الهند في علم الطبائع من أن الشيء إذا أفرط في البرد عاد حارًّا مؤذيًا، وعرف ذلك أبو نواس، ٣فقال:

قل لزهير إذَا حَـــــدَا وَشَدَا ** أَقْلِلْ وَأَكْثِرْ فَأَنْتَ مـهذارُ
سَخُنْتَ من شدة البرودة حتَّـ ** ـى صرتَ عندي كأنك النار
لا يعجب السامعون من صفتي ** كذلك الثلج باردٌ حـــار

ومما تأثر فيه ببعض آراء الهند قوله:

تُخُيِّرَتْ والنجومُ وُقْفٌ ** لم يتمكن بها المدارُ

وهو يشير بذلك إلى بعض ما نقل عنهم من أن: "الخمر تخيرت حين خلق الله الفلك، وأصحاب الحساب يذكرون أن الله تعالى حين خلق النجوم جعلها مجتمعة واقعة في برج، ثم سيَّرها من هناك، وأنها لا تزال جارية حتى تجتمع في ذلك البرج الذي ابتدأها منه، وإذا عادت إليه قامت القيامة وبطل العالم.

والهند تقول إنه في زمان نوح اجتمعت في الحوت إلا يسيرًا منها فهلك الخلق بالطوفان، وبقي منهم بقدر ما بقي منها خارجًا عن الحوت١" وربما كان أهم ما أثرت به الهند في المجال الشعري العام ما انتشر في كتاب كليلة ودمنة من حكم، وقد نقل هذا الكتاب إلى العربية ابن المقفع ثم نظمه أبان بن عبد الحميد للبرامكة شعرًا، ويحتفظ كتاب الأوراق للصولي بقطع طويلة من هذا النظم الذي يستهله بقوله:

هذا كتاب أدب ومحنه ** وهو الذي يدعي كليلة دمنه
فيه دلالات وفيه رشد ** وهو كتاب وضعته الـهند
فوصفوا آداب كل عالم ** حـــكاية عن ألسن البهائم

والحركة والسكون والتولد والكمون والجوهر والعرض والجوهر الفرد. وكان كثير من الشعراء يستمع إليهم؛ بل لقد وُسِمَ غير شاعر بالكلام والاعتزال، وأنه يستمد منها في موازنة الشيء بالشيء وفي الجدل والمغالطة، كما يستمد منهما في استنباط المعاني الخفية والأفكار الدقيقة، وقد بدأ بشار حياته متصلًا بالمتكلمين وبالمعتزلة منهم خاصة؛ إذ كان يصحب واصل بن عطاء[٤] وما زال قريبًا منه، حتى أظهر ثنويته وزندقته، ففسد ما بينهما ونادى واصل في الناس أن يقتلوه؛ ففرَّ في البصرة، وذهب يعلن أنه لا يؤمن بواصل ومذهبه في القدر؛ إنما يؤمن بالجبر وأن حرية الإنسان معطلة في الحياة، يقول:

---

١ / الثقافات الأجنبيَّة في العصر العباسي، صالح آدم بيلو ، ص،٨٩.
٢ / ديوان أبي العتاهية ص٢٧٤.
٣ / الشعر والشعراء ص٥٠٦، وانظر عيون الأخبار ٢/ ٧. الفن ومذاهبه في الشعر العربي ، ص، ١٣٤.
٤ / انظر الأغاني ،ج٣، ص، ١٥٢.

طُبِعَت على ما فِيّ غير مخـــيَّرٍ ** هوايَ ولو خُيِّرتُ كنت المهذَّبا
أريد فلا أعطَى وأعطى ولم أرد ** وقصَّر علمي أن أنال المغيَّبا
فأصْرَفُ عن قصدي وعلمي مقصِّرٌ ** وأمسي وما أعقبت إلا التعجبا

وكان يكثر من الحجاج والجدال في ذلك ويقول: ما أومن إلا بالحِسِّ وما عاينته[1].

وتحول بهذا الجدال وما يطوى فيه من قدرة على الاستدلال إلى شعره ومعانيه؛ فكان يكثر فيه من استنباط الأدلة وحشد البراهين على شاكلة قوله:

إذا بلغ الرأي المشورة فاستعن ** برأي نصيح أو نصيحة حازم
ولا تجعل الشورى عليك غضاضة ** فإن الخوافي قوة للقوادم
وما خير كـــف أمسك الغُلُّ أختها ** وما خير سيفٍ لم يؤيد بقائم

وقوله:

إذا كنت في كل الأمـــــور معاتبًا ** صديقَك لم تلقَ الـــذي لا تعـاتبه
فعش واحدًا أو صِلْ أخـــاك فإنه ** مقـــارفُ ذنبٍ مـــرّةً ومجانبه
إذا أنت لم تشرب مرارًا على القذى ** ظمئت وأي الناس تصفو مشاربه

وما نشك في أن كثرة هذه الأدلة في شعره جاءته من بيئة المتكلمين، وما كانت تعتمد عليه في جدالها من أقيسة المنطق والترتيب لمقدماتها الصحيحة واندفع يستنبط كثيرًا من دقائق المعاني ولطائف الفكر؛ كقوله في بعض ممدوحيه:

ليس يعطيك للرجاء ولا الخو ** ف ولكن يَلَذُّ طعم العطاءِ

فإنك تراه يفكر تفكيرًا جديدًا؛ إذ يجعل العطاء بدون غاية خارجة عن نفسه، وهي فكرة لم تكن تقع في عقل الشاعر القديم؛ إنما تقع في عقل الشاعر العباسي الجديد الذي لا يزال يغرق في التفكير حتى يتصور الأشياء مجردة عن غاياتها، وإذا كان المتكلمون اشتهروا بمغالطاتهم أو بتأتِّيهم لتعليلاتهم، أو كما يقول البلاغيون بحسن التعليل؛ فإننا نجد من ذلك أصباغًا كثيرة في شعر بشار كتعليله لآفته بقوله:

عَميتُ جنينًا والذكاء من العَمى ** فجئت عجيب الظن للعلم مونلًا

وقوله في جارية سوداء:

وغادة سوداء بـــرّاقةٍ ** كالماء في طيب وفي لين

وتكثر هذه التعليلات في شعر بشار، كما تكثر معها الموازنة والتقسيمات والبعد في التأويل واستخراج المعاني، على شاكلة قوله:

وعِيّ الفعال كعيِّ المقالِ ** وفي الصمت عِيٌّ كعيّ الكَلِمْ[2]

وأنت تراه لا يخصص العيَّ بالكلام. بل يجعله في الفعال، بل هو يذهب إلى أبعد من ذلك، فيقيم في الصمت عِيًّا كعي الكلام؛ فإذا العي على أقسام: عي الصمت وعي الفعال وعي المقال. وأكبر الظن أن هذا التقسيم الطريف هو الذي ألهم الجاحظ رسالته في تفضيل الكلام على الصمت وخروجه عما ألفه الناس في أمثالهم.

ولا تقل أهمية الثقافة الهندية عن الثقافة الفارسية، إذ ترجم العباسيون عنها كثيرا من الحكم والقصص، ومن الفلك والرياضة والطب، وقد ترجم إبراهيم الفزاري للمنصور كتاب الفلك الهندي المعروف باسم "السند هند" يعاونه في ذلك بعض علماء من الهنود.

والذي لا ريب فيه أن هذه الثقافات الدخيلة التي نقلت إلى العربية، وسعت طاقتها، بما اكتسبت من المعاني العقلية والفلسفية. وقد أصبح النثر العربي نثر ثقافة متشعبة، تمدها روافد كبيرة من إيران الهند واليونان، وليس ذلك فحسب، فقد أخذت تدخل في هذا النثر طرائق النظر الأجنبية، وأساليب الأجانب في تفكيرهم، والذي لا ريب فيه أيضًا أنه قام على هذا العمل نخبة من رجال الفكر الذين يحسنون اللغتين المنقول عنها، والمنقول إليها فإذا هم يستخدمون أسلوبا مولدا جديدا يحتفظون فيه للعربية بصورتها

---

١ / الأغاني ، ج٣، ص، ٢٢٧.

٢ / البيان والتبيين، عمرو بن بحر بن محبوب الكناني بالولاء، الليثي، أبو عثمان، الشهير بالجاحظ (ت: ٢٥٥هـ)،الناشر: دار ومكتبة الهلال، بيروت، عام النشر: ١٤٢٣ هـ ج١، ص ٤.

النحوية والتركيبية، ونحن لا نستطيع أن نقف على مدى إحسانهم في هذا الأسلوب، إلا إذا لاحظنا أن علم اللغة نفسه، وما اتصل به من علم النحو، فقد وضع الخليل خطة أول معجم في العربية، وهو "معجم العين"، ورتبه على مخارج الحروف بالضبط كما يرتب الهنود حروف لغتهم، وكان يعرف علم الموسيقى، وعلى هديه أو باستيحائه وضع عروض الشعر وموازينه، ولا ننسى المنطق اليوناني فصلته بالنحو العربي مقررة، ومعنى ذلك العلوم المنقولة أثرت في تلك العلوم اللغوية، كما أثرت في جميع العلوم العربية الإسلامية الخالصة، وليس من باب الاتفاق أن يأخذ فقهاء العراق بالقياس، أو يسموا بأصحاب الرأي، وقد أخذ المؤرخون يكتبون في التاريخ على ضوء ما قرأوا عند الأمم الأجنبية من كتاباته، مما أتاح للطبري أن يكتب موسوعته التاريخية الكبرى.

المبحث الثالث
أثر الثقافات الأجنبية في شعر بشار من حيث ألفاظه وأساليبه وقوافيه وأخيلته ومعانيه

الألفاظ والأساليب:

في نظرة شاملة على الشعر العباسي نجد تأثير الحياة الجديدة في اللفظ، فقد صفا وراق ، وفي الأسلوب فاتضح وأشرق؛ فالشعراء مالوا إلى السهل من الألفاظ، والرشيق اللين، وهجران الوحشي الغريب، والبعد عن الغليظ، ونزعوا إلى كل عذب سلس حتى تكاد هذه الألفاظ والأساليب تسيل رقة وعذوبة.

وقد تنافس الشعراء وتباروا في هذا المجال، كل منهم يريد أن يحرز قصب السبق؛ يروي أبو الفرج الأصفهاني أن جماعة من الشعراء، هم : أبو نواس ومسلم بن الوليد، وأبو الشيص ودعبل اجتمعوا في مجلس، فقالوا :" لينشد كل واحد منكم أجود ما قال، فأنشدهم أبو الشيص:

وقف الهوى بي حيث أنت فليس لي ** متأخّـــــر عنه ولا مــتقدّم
أجــد الملامة في هـــواك لذيذة ** حبّا لذكرك فليلمني اللّـــوم

قال: فجعل أبو نواس يعجب من حسن الشعر حتى ما كاد ينقضي عجبه، ثم قال :" وحياتك لَأسرقنَّ هذا المعنى منك ، ثم لأغلبنك عليه فيشتهر ما أقول ويموت ما قلت "

قال دعبل: فقال لي أبو نواس: هات أبا علي، وكأني بك قد جئتنا بأم القلادة؛ فقلت: يا سيدي، ومن يباهيك بها غيري فأنشدته:

أين الشّبـــاب وأيّة سلكا ** أم أين يطلب ضلّ أم هــلـــكا
لا تعجبي يا سلم من رجــل ** ضـــــحك المشيب برأسه فبكى
يا ليت شعري كيف صبركما ** يا صـــــــاحبيّ إذا دمي سفكا

ثم سألناه أن ينشد، فأنشد أبو نواس:

لا تبك هندا ولا تطـــرب إلى دعد ** واشرب على الورد من حمراء كالورد
كأسا إذا انحدرت في حلق شاربها ** وجـــدت حــمرتها في العـــين والخدّ
فالخـــــمر ياقوتة والكأس لـؤلؤة ** في كفّ جـــارية ممشـــوقة القدّ
تسقيك من عينها خمرا ومن يـدها ** خـــمرا، فمالك مـــن سكرين من بـدّ
لي نشوتان وللنّدمـــــان واحـــدة ** شيء خصصت به من بينهم وحـــدي

فقاموا كلهم فسجدوا له؛ فقال: أفعلتموها أعجميّة؟ لا كلمتكم ثلاثا ولا ثلاثا ولا ثلاثا! ثم قال: تسعة أيام في هجر الاخوان كثير، وفي هجر بعض يوم استصلاح للفساد وعقوبة على الهفوة. ثم التفت فقال: أعلمتم أن حكيما عتب على حكيم، فكتب المعتوب عليه إلى العاتب: يا أخي، إن أيام العمر أقلّ من أن تحتمل الهجر[١]. وكان بشار يعد في الخطباء والبلغاء. ولا أعرف أحداً من أهل العلم والفهم دفع فضله ولا رغب عن شعره. وكان شعره أنقى من الراحة، وأصفي من الزجاجة وأسلس على اللسان من الماء العذب. ومما يستحسن من شعره - وإن كان كله حسناً - منها قوله:

---

١ / العقد الفريد، أبو عمر، شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد ربه ابن حبيب ابن حدير بن سالم المعروف بابن عبد ربه الأندلسي (ت: ٣٢٨هـ) ،الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت،ط١، ١٤٠٤ هـ، ج٦، ص٢٢٠.

يا قـوم أذني لبعض الحـــيّ عاشقة ** والأذن تعشـــق قبل العين أحـيانا

هذه صورة عامة، والصورة المجملة ، فإذا انتقلنا إلى الحديث المفصل، نرى ما يأتي:

١ ــ من حيث مادة اللغة ومفرداتها، نلحظ ما يأتي:

٢ ــ أن الشعراء قد استعملوا ألفاظًا أعجمية أبقيت على صورتها الأصلية، أو عربت وصقلت لتصير سائغة في اللسان العربي.

٣ــ ابتكارات اشتقاقات لألفاظ عربية لم يستعملها العرب، كاستعمال لكلمتي (الوجلي والغزلي) من الوجل والغزل، ولم يسمعا قبل قوله.

حدثني على بن أبى عبد الله الفارسي، قال: أخبرني أبى، قال: حدثني على بن مهدى، قال: حدثني أبو حاتم، قال: كان الأخفش يطعن على بشّار في قوله:

والآن أقصر عن سميّة باطلي ** وأشار بالوجلي علىّ مشير

وفي قوله :

على الغزلي منّى السلام فربما ** لهوت بها في ظل مخضرّة زهر

وقال: لم يسمع من الوجل والغزل «فعلى» ، وإنما قاسهما بشار، وليس هذا مما يقاس، إنما يعمل فيه بالسماع. وطعن عليه في قوله:

تلاعب نينان البحور وربما ** رأيت نفوس القوم من جريها تجرى

وقال: لم يسمع بنون ونينان فبلغ ذلك بشارًا فقال: ويلى على القصّار بن القصّارين، متى كانت اللغة والفصاحة في بيوت القصّارين؟ دعوني وإياه. فبلغ ذلك الأخفش فبكى. فقيل له: ما يبكيك؟ قال: وقعت في لسان الأعمى! فذهب أصحابه إلى بشّار، فكذّبوا عنه، وسألوه ألّا يهجوه؛ فقال: وهبته للؤم عرضه. قال: فكان الأخفش بعد ذلك يحتجّ في كتبه بشعره ليبلغه ذلك، فيكفّ عنه. قال: وقد كان بلغ بشارا عن سيبويه أيضا شيء من ذلك، فهجاه بقصيدة يقول فيها:

أسبويه يا بن الفارسيّة مـا الذى ** تحدثت من شيمتي وما كنت تنبذ

أظلت تغنى ســـادرا بمساءتي ** وأمّك بالمصرين تعـطى وتأخـذ

فقيل لبشار: تنسبه إلى الفارسية؟ قال: نسبته إلى أن أعرف أبويه. قيل: فلم جعلتها فارسية؟ قال: إنّ بفارس الشريف والوضيع.

قال ابن مهدى: وحدثني أبو هفّان، قال: حدثني أبو محلّم، قال: كان بالبصرة امرأة زانية يقال لها الفارسية مشهورة بالزنا؛ فكان أهل البصرة إذا أرادوا أن يذموا إنسانًا قالوا له: «يابن الفارسية» ، فإلى هذا ذهب بشار؛ وكان أشدّ عصبية للفرس من أن يقول هذا.

حدثني أحمد بن محمد الجوهري، قال: حدثني الحسن بن عليل العنزي، قال: حدثني علىّ بن محمد بن سليمان النوفلي، قال: حدثنا عبد الرحمن بن العباس بن الفضل بن عبد الرحمن بن العباس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب، عن أبيه، قال: تواريت من المنصور بخروجي مع إبراهيم، وكان بشار صديقي وصديق إخوتي ومنقطعا إلينا، وكان يغشانا كثيرا أيام ظهورنا. فكنت في تواريّ ببغداد وهى أول ما بنيت، وكان بشار يجلس بالليل في مسجد الرّصافة، فيحضره ناس كثير، ويحدثهم، وينشدهم شعره. فاندسست في الناس ليلة، ثم صحت: يا أبا معاذ، من الذى يقول:

أحبّ الخاتم الأحم ** ر من حبّ مـواليه

فأعرض عنى، وأخذ في إنشاد شعره، فمكثت ساعة ثم صحت به: يا أبا معاذ، من الذى يقول :

وإذا أدنيت مـــنّى بـصلا ** غلب المسك على ريح البصل

إنّ سلمى خلقت من قصب ** قصـــب السكر لا عظم الجمل

فغضب، وصاح: من هذا الذى يقرعنا بأشياء كنا نعبث بها، ويأتي برذال شعرنا وما لم نرد به الجيد؟ قال: فسكت ومكثت ساعة، ثم قلت: يا أبا معاذ، من الذى يقول :

أخشّاب حقّا أنّ دارك تزعج ** وأنّ الذى بيني وبينك منهج

قال: فنشط، ثم قال: ويحك! عن مثل هذا فسل. ثم اندفع ينشدها حتى أتى عليها[١].

ثانيًا ـ الصبغ البديعي:

إن أول من فتق البديع من المحدثين بشار بن برد، وابن هرمة، وهو ساقة العرب وآخر من يستشهد بشعره. ثم أتبعهما مقتدياً بهما كلثوم بن عمرو العتابي، ومنصور النمري، ومسلم بن الوليد، وأبو نواس. واتبع هؤلاء حبيب الطائي، والوليد البحتري، وعبد الله بن المعتز؛ فانتهى علم البديع والصنعة إليه، وختم به. وشبه قوم أبا نواس بالنابغة لما اجتمع له من الجزالة مع الرشاقة، وحسن الديباجة، والمعرفة بمدح الملوك. وأما بشار فقد شبهوه با مرئ القيس؛ لتقدمه على المولدين وأخذهم عنه، ومن كلامهم: بشار أبو المحدثين.

وسمعت أبا عبد الله غير مرة يقول: إنما سمي الأعشى صناجة العرب لأنه أول من ذكر الصنج في شعره. قال: ويقال: بل سمي صناجة لقوة طبعه، وحلية شعره، يخيل لك إذا أنشدته أن آخر ينشد معك. ومثله من المولدين بشار بن برد، تنشد أقصر شعره عروضاً وألينه كلاماً فتجد له في نفسك هزة وجلبة من قوة الطبع؛ وقد أشبهه تصرفاً وضرباً في الشعر وكثرة عروض مدحاً وهجاء وافتخاراً وتطويلاً. انقضى كلام أبي عبد الله ورجعنا إلى القول في الطبع والتصنيع.

ولسنا ندفع أن البيت إذا وقع مطبوعاً في غاية الجودة ثم وقع في معناه بيت مصنوع في نهاية الحسن لن تؤثر فيه الكلفة ولا ظهر عليه التعلم كان المصنوع أفضلهما، وإلا أنه إذا توالى ذلك وكثر لم يجز البتة أن يكون طبعاً واتفاقاً؛ إذ ليس ذلك في طباع البشر. وسبيل الحاذق بهذه الصناعة إذا غلب عليه حب التصنيع أن يترك للطبع مجالاً يتسع فيه[٢].

ثانيًا ــ الأخيلة والمعاني

كان لتقدم الحياة العقلية والمادية أثر في تنوع وتعميق معاني الشعر وأخيلته في العصر العباسي إذ أمدت الشعراء بالمعنى الدقيق والفكر المرتب، والخيال الخصب؛ فأتوا بكل عجيب مبدع، فإذا كان المتقدمون قد استقلوا بجانب فإذا كان المتقدمون قد أجادوا صحة الأداة ومتانة التعبير؛ فقد صار لهؤلاء فضل المعنى الجيد، والخيال المحلق، والفكر المنسق.

قال أبو الفتح عثمان بن جني:" المولدون يستشهد بهم في المعاني كما يستشهد بالقدماء في الألفاظ"[٣]، والذي ذكره أبو الفتح صحيح بين؛ لأن المعاني إنما اتسعت لاتساع الناس في الدنيا، وانتشار العرب بالإسلام في أقطار الأرض، فمصروا الأمصار، وحضروا الحواضر، وتأنقوا في المطاعم والملابس، وعرفوا بالعيان عاقبة ما دلتهم عليه بداهة العقول من فضل التشبيه وغيره، وإنما خصصت التشبيه لأنه أصعب أنواع الشعر، وأبعدها ومتعاطي، وكل يصف الشيء بمقدار ما في نفسه من ضعف أو قوة، وعجز أو قدرة، وصفة الإنسان ما رأى يكون لا شك أصوب من صفته ما لم ير، وتشبيهه ما عاين بما عاين أفضل من تشبيه ما أبصر بما لم يبصر، ومن هنا يحكى عن ابن الرومي أن لائماً لامه فقال: لم لا تشبه تشبيه ابن المعتز وأنت أشعر منه؟ قال: أنشدني شيئاً من قوله الذي استعجزتني في مثله، فأنشده في صفة الهلال:

فانظر إليه كزورق من فضةٍ ** قد أثقلته حمولة من عنبر

فقال: زدني، فأنشده:

كَأَن آذريونها ** وَالشَّمْس فِيهَا عالية

مداهن من ذهب ** فِيهَا بقايـــا غَالِيَة[٤]

وعلى هذا ؛ فإن ما طرأ على هذه المعاني والأخيلة جاء على الصور الآتية:

١ـ ابتكار المعاني وجدتها:

---

١ / الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء ، ص،٣١٥.

٢ / العمدة في محاسن الشعر وآدابه ، ج١/ ١٣١.

٣ / العمدة ، لابن رشيق،ج٢، ص٢٣٦.

٤ / العمدة لابن رشيق في باب المعاني المحدثة، ج٢، ص ٢٤٢.

إن شعراء العصر العباسي استقوا مشاعرهم في بعض الأحيان من حياتهم الفردية، واتصفت هذه المعاني بالابتكار والعمق؛ فلجأوا إلى المعاني المعبرة عن حياة الفرد؛ فقد اقترب الشاعر من نفسية صاحبه ، وأصبح وسيلة للتعبير عما يحسه ويشفه فنشر في شعره ما يعبر فيه عن أفراحه وأحزانه ويسخره للتعبير عن ذاته قبل أن يعبر عن الآخرين، والتمس لهذه الغاية ما يناسبها من المعاني العميقة الوسيلة التي استخلصها من حياته واستمدها مما يعانيه ويواجهه في أيامه ولياليه؛ فكان الشعر في العصر العباسي شعرًا ذاتيًا بالإضافة إلى الأغراض التقليدية التي نظموا فيها.

فنشأ نوع جديد من الشعر يقوم على توظيف ألفاظ جديدة من الشعر وتعمد استخدامها في كثير من الأغراض؛ كان بشار يأتيه ثقيل يقال له أبو سفيان. فسئل عنه بشار يوما فقال: لا ادري لم لا تحمل الأمانة أرض حملته، ولا كيف احتاجت إلى الجبال بعدما أقلته! كأن قربه أيام المصائب وليالي النوائب؛ وكأن عشرته فقد الحبائب، وسوء العواقب. ثم أنشد:

ربما يثقلُ الجليسُ وإن كانَ ** خفيفاً في كفهِ الميزانِ
ولقد قلتُ حين طل على القوم ** ثقيلٌ أرني على ثهلان
كيف لم تحملِ الأمانةَ أرضٌ ** حملتْ فوقها أبا سفيان؟[١]

وكان لبشار أيضاً صديق يقال له هلال، فقال لبشار يوما: يا أبا معاذ! إنَّ الله لم يذهب بصر أحد إلاّ عوضه منه شيئاً، فما عوضك؟ قال: الطويل العريض. قال: وما هو؟ قال: إلاّ أراك ولا أرى الثقلاء أمثالك! ثم قال: يا هلال، أتطيعني في نصيحة أخصك بها؟ قال: نعم! قال: انك كنت تسرق الحمير زمانا، ثم تبت وصرت رافضيًا؛ فعد إلى سرقة الحمير، فهي والله خير لك من الرفض! وفي هلال هـ يقول بشار:

وكيف يحق لي بصري وسمعي ** وحولي عسكران من الثقال
قـــعودا عند دسكرتي وداري ** كأن لهم علي فضول مال؟
إذا مـــا شئت صبحني هــلال ** وأي الناس أثقل من هلال؟[٢]

لم يعد الشعراء يكتفون بالمعنى السطحي بل دفعتهم الثقافة الجديدة والأفكار المتعددة إلى تعميق الفكرة ، وتدقيق المعنى، وابتكاره وبذل الجهد في الإتيان بالجديد الذي لم يسبق إليه، ومن ذلك قول بشار:

يا قَوْمِ أُذْنِي لِبَــعْضِ الحيِّ عَاشِقَةٌ ** والأُذْنُ تَعْشَقُ قَبْــلَ العَيْنِ أَحْيَانا
قَالُوا: بِمَنْ لاَ تَرَى تَهْذِي؟ فَقُلتُ لَهُمْ ** الأُذْنُ كَالْعَيْنِ تُوفي القَلبَ مَا كانَا[٣]

وكرره فقال:

قالت عقيل بن كعب إذ تعلقها ** قلبي وأمسى به من حــبها أثر
إني ولم ترها تهذي؟ فقلت لهم: ** إن الفؤاد يرى ما لا يرى البصر[٤]

وقوله أيضاً:

لقد عشقت أذنى كـــلاما سمعته ** رخيما، وقلبى للمليحة أعشق
ولو عاينوها لم يلوموا على البكى ** كريما سقاه الخمر بدر محلّق
وكيف تناسى مـــن كأنّ حديثه ** بأذنى وإن عنيت قرط معلّق
وكيف تناسى مـــن كأن حديثه ** بأذني وإن غيبت قــرط معلق[٥]

واختراعاته كثيرة، واشتهاره بذلك يغني عن الإنشاد له[٦].

قال ابن رشيق :"وهذا معنى بديع لم يسبقه إليه أحد. وهذه قصيدة طويلة وقد قدمنا في كتابنا هذا أنا نروم الإيجاز والاختصار"

---

[١] / ديوان المعاني (١/ ١٨٩)
٢ / زهر الأكم في الأمثال والحكم (٢/ ١٢)
٣ / ديوان بشار، ج٤، ص، ٢٠٦.
[٤] / العمدة في محاسن الشعر وآدابه (٢/ ٢٤٢)
[٥] / نفسه ، ص ، ٤٧١.
٦ / العمدة ، لابن رشيق، ج٢، ص٢٤٢.

ومن ذلك قوله:

لَمَسْتُ بِكَفِّي كَفَّهُ أبْتغِي الغِنَى ** وَلَـــمْ أَدْرِ أَنّ الْجُودَ مِنْ كَفِّهِ يُعْدي
فَلاَ أَنَا مِنْهُ ما أَفَادَ ذَوُو الغِنَى ** أَفَدْتُ، وَأَعْـــدَانِي فَبَدَّدْتُ ما عِنْدِي[١]

ومما يستحسن من شعره أيضاً وهو المعنى الذي لم يسبق إليه:

لمْ يَطُلْ لَيلي، وَلكِنْ لمْ أَنَمْ، ** وَنَفَـى عَني الكَرَى طَيفٌ أَلَمّ
خَتَمَ الحُبُّ لَهَا في عُنُقي، ** مَوْضِعَ الخَاتَمِ من أهلِ الذِّمَمْ
إنّ في ثَوْبيّ جِسْماً نَاحِلاً ** لَوْ تَوَكّأتُ عَـلَيْهِ لانْهَـــدَمْ

ومن مستحسن شعره رائيته العجيبة البديعة المعاني الرفيعة المباني:

رأيت صحـــــابتي بخناصرات ** حمولا بعد ما متع النّهـار
فكاد القـــــلب من طـرب إليهم ** ومن طول الصّبابة يستطار
وفـــــي الحيّ الذين رأيت خود ** خلـــوب الدل آنسة نــوار
جفـــت عيني عـن التغميض حتّى ** كـــــأنّ جفونها عنها قصار[٢]

بل كان بشار يتعمد ويحرص على المعاني، ويسابق فيها؛ مما يدل على ذلك ما رواه ابن المعتز في الطبقات في أخبار سلم الخاسر:" وكان من المطبوعين المجيدين. وكان تلميذاً لبشار بن برد الأعمى، ولما قال بشار بيته هذا:

من راقب الناس لم يظفر بحاجته ** وفاز بالطيبات الفاتك اللهجُ

أخذ سلم هذا المعنى، وجاء به في أجود من ألفاظه وأفصح وأوجز فقال:

من راقب الناس مات غماً ** وفاز باللذة الجَسُورُ

وقال بشار - حين قال بيته ذلك -: ما سبقني أحد إلى هذا المعنى ولا يأتي بمثله أحد. فلما قال سَلْمٌ هذا البيت، قال راوية بشار: صرت إليه فقلت: يا أبا معاذ، قد قال سلم بيتاً أجود من بيتك الذي تعجب به. قال: وما هو؟ فأنشدته البيت، فلما سمع بشار هذا البيت قال: يعمد إلى معاني التي أسهرت فيها ليلي وأتعبت فيها فكري فيكسوها لفظاً أخف من لفظي فيروى شعره ويترك شعري والله لا أكلت اليوم ولا صمت ؛ فقال: أوخ، ذهب والله بيتي، لوددت أن ولاءه لغير آل أبي بكر الصديق فأقطعه وقومه بهجوي"[٣].

وجاء في الطبقات[٤]:"وبلغني أن مسلم بن الوليد وجماعة، منهم أبو الشيص وأبو نواس وغيرهما، كانوا عند بعض الخلفاء، فسألهم عن ديباج الشعر الذي لا يتفاوت نمطه. ، فأنشدوه لجماعة من المتقدمين والمحدثين، فكأنه لم يقع منه بالغرض، وسأل عن أحسن من ذلك، فقال أبو نواس: أنا لها يا أمير المؤمنين. وأنشد هذه الأبيات الرائية لبشار، فاستحسنها جدّاً، وقال: ومما أجاد فيه وأفرط قوله في الافتخار[٥]:

إِذَا مَا غَضِبنا غَضبةً مُضَرِيَّةً ** هَتكنا حجابَ الشَّمْس أَو قطَرَت دَمًا
إِذَا مَـا أعرَنا سيداً من قبيلةٍ ** ذُرى مِنبر صلَّى علـــــينا وسلـــما

ومن غزله الطيب الحسن المليح قوله[٦]:

يا منية القلـــــب إنّي لا أسميك ** أكني بأخرى أسمـــها وأعنيك
يَا أطْيبَ النَّاسِ رِيقاً غَيرَ مُختَبِرٍ ** إلاَّ شَهادةَ أطـــــرافِ الْمَساويكِ
قَد زُرتنا زَورَةً فِي الدَّهرِ واحِدةً ** ثَنِّي وَلَا تَجـــعَليها بَيضةَ الدِّيكِ
يَا رَحمَةَ اللهِ حُلِّي فِـــي مَنَـــازِلِها ** حَسبي بِرائِحةِ الفِردَوسِ مِنْ فِيكِ

ومن بدائعه قوله:

---

١ / ديوان بشار ، ج٤، ص٤٤.
٢ / طبقات الشعراء لابن المعتز ، ص: ٢٩.
٣ / طبقات الشعراء، لابن المعتز، ج١، ص١٠٠.
٤ / طبقات الشعراء، لابن المعتز ، ص،٣٠.
٥ / معاهد التنصيص على شواهد التلخيص (١/ ٢٩٥)
٦ / الحماسة المغربية (٢/ ١٠٧٥)

وخريدة سودٍ ذوائبها ** قد ضمخت بالمسك والورس
أقبلن في رأد الضحاء بها ** فسترن عين الشمس بالشمس

وله القصيدة المشهورة التي يقول فيها هذا البيت " يا رحمة الله ...الخ " وقد ضمنه أبو نواس بشعره وهو هذا البيت:

يا رحمة الله حلي في منازلنا ** وجاورينا فدتك النفس من جار[١]

٣ ـ التصوير وسعة الخيال:

من أظهر سمات الشعر العباسي، براعة التصوير وسعة الخيال؛ فقد وجدوا في الحضارة المادية أفقًا فسيحًا للخيال، وينبوعًا ثرًا يستمدون منه الصور، كما وجدوا في الحضارة العقلية وخيالاتها المبدعة وتصويرها الغنية مما أعانهم على الإتيان بكل بارع من الوصف، ساحر من الصور. كل ذلك كان نتيجة للفكر الوافد ومما أنتجته من حضارة جديدة ؛ومن ذلك قول بشار في نوع شرابه ومحاسن محبوبته:

أُيُّـــها السَّاقِيَانِ صُبَّا شَـرَابِي ** وَاسْقِيَانِي مِنْ رِيقِ بَيْـضَاءَ رُوْدِ
إِنَّ دَائِي الصَّدَى وَإِنَّ شِفَائِي ** شَرْبَةٌ مِنْ رَضَابِ ثَغْرِ بـــــرُوْدِ
عِنْدَهَا الصَّبْرُ عَنْ لَقَائِي وَعِنْدِ ** زَفـــرَاتٌ يَأْكُلْنَ قَلْـــــــبَ الْجَلِيْدِ
وَلَـــــها مَبْسَمٌ كَنَوْرِ الأَقَاحِي ** وَحَـــــدِيثٌ كَالوَشْيِ وَشْيِ البُـرُودِ
نَزَلَتْ فِي السَّوَادِ مِنْ حَبَّةِ القَلْبِ ** وَنَـــالَتْ زِيَـــادَةَ الْمُسْتَـــــزِيدِ
ثُمَّ قَـــالَتْ نَلْقَاكَ بَعْـدَ لَيَالٍ ** وَاللَّيَـــالِي يُبْلِينَ كُـــلَّ جَـــدِيدِ
مَا أُبَـالِي مَنْ صَدّ عَنِّي بَوَصْلٍ ** إِنْ قَضَى اللهُ مِـــنْكِ لِي يَـــومَ جود[٢]

٤ـ المبالغة والتهويل:

فإن قلت: ففي بيت أبي الطيب زيادة في أنّ الريح إذا أطارت عنه الثوب لم يبن والخلال يبين للناظر ولا يثبت الثوب على مثل الخلال وإن كان أخفّ ثوب وإنما نبهه على هذا بشار في قوله:

سَلَبت عِـــظَامي لَحْمها فَتركْتَها ** عَواري في أجْـــــلادِها تَتكسرُ
وأخليت منـها مخـــــها فَتركتُها ** أنابيبَ في أجْوافِهَا الريـح تَصفرُ
خذن بِيدي ثُمَّ ارْفعي الثوبَ فانْظري ** ضَنى جَســـــــدي لكنَّني أتَستَّرُ
وليسَ الذي يَجْري مِن العَين مَاؤها ** ولكنـــــــها نَفْسٌ تَذوب فَتَقْطرُ

وهذا أصح على مذهب من جهد الاقتصاد، وذلك أنه خبر عن ضنًى يسير بستره ثوبه على بدن لا يتبين للناظر وهي مبالغة مستحيلة، وللشعراء مبالغتان ممكنة ومستحيلة والممكن أحسن عند كثير من الأدباء من المستحيل، فمن ذلك قول القائل:

مَنَعَتْ مهابتُكَ القلوبَ كَلامها ** بالأمرِ تَكْرهُ وإنْ لَمْ تَعلمِ [٣]

٥ ـ الأدلة المنطقية والبراهين العقلية:

ومن آثار الثقافة الفارسية نرى بشار ينسج في بعض شعره على منوال ابن المقفع؛ فهو يتحدث عن الصداقة والصديق مستلهمًا ما كتبه فيها ابن المقفع في كتابه" الأدب الكبير" ، كما يستلهم قوة البرهان والحجة؛ فإذا هو يقول[٤]:

إذا كنْتَ في كُلُّ الأمـــــــــورِ معاتباً ** صديقَكَ لم تلقَ الـــــذي لاتعتبهْ
فَعشْ واحـــداً أوصِلْ أخـــــــاكَ فإنه ** مقـــــارفُ ذنبٍ مـــرةً ومجانبهْ
وإن أنتَ لم تشربْ مـــــراراً على القَذَى ** ظمئْتَ وأيُّ الناسِ تصفو مشاربهْ
وما الشكلُ إلا حسنُ ظنٍ بصـــــــاحبٍ ** خذولٍ إذا ما الـــدهرُ نابتَ نوائبهْ
ومـــن ذا الذي تُرْضى سَجـــاياه كلـــها ** كفى المـــرءَ نبلاً أن تعدَّ معايبهْ

---

١ / طبقات الشعراء لابن المعتز ، ص، ٣١.
٢ / ديوان بشار ج٢، ص، ٢٧١.وزهر الآداب للحصري، ج٢، ص، ١٣٤.
٣ / المنصف للسارق والمسروق منه ،ج١، ص١٩٩.
٤ / مجمع الحكم والأمثال في الشعر العربي ،٦، ص ٤٣٠.

ثالثًا ــ الأوزان والقوافي:

العرب يمتاز غناؤها ـ كما يقول الجاحظ ـ بأنها "تقطع الألحان الموزونة على الأشعار الموزونة؛ فتضع موزونًا على موزون، والعجم تمطِّط الألفاظ فتقبض وتبسط حتى تدخل في وزن اللحن، فتضع موزونًا على غير موزون"[١]، ومن ثم نستطيع أن نفهم الصلة بين العروض العربي والغناء العربي، فإن الأول فيما يظهر أُلِّفَ على أساس رُقِّم الغناء التي عرفت في العصر العباسي، ومما يؤيد ذلك ما يقوله أخوان الصفا من أن قوانين الموسيقى مماثلة لقوانين العروض[٢]، وما قاله إسحاق سابقًا من أن النَّصْبَ يخرج كله من أصل الطويل في العروض، ونفس الخليل صاحب هذا العروض ألف في الأصوات كتابين[٣]، ويقول ابن خلكان: إن معرفته بالإيقاع هي التي أحدثت له علم العروض[٤]، ولعلنا من أجل ذلك كنا نجد كثيرًا من ألفاظه الاصطلاحية التي وضعها في العروض شائعة في الغناء من مثل السِّناد والنصب والثقيل والخفيف والهزج والرمل، وكتب أبو العلاء فصلًا عن الألحان في الغناء، فعرف بالثقيل الأول والثقيل الثاني وخفيف الثقيل والرمل وخفيف الرمل والهزج على نحو ما يعرِّف العروضيون بأوزانهم؛ إذ ضبط الثقيل الأول بثلاث نقرات متساويات الأوزان، وقاسه على مثال مفعولن؛ بينما قاس الثقيل الثاني بمفعولان، أما خفيفه فقياسه مفعولان بالسكون، والرمل قاسه على مثال "لان مفعو" أو كما يقول العروضيون فاعلاتن، أما الهزج فقاسه على مثال قال لي، أو كما يقول العروضيون فاعلن[٥].

وهذا المبحث يوضح العلاقة التي كانت موجودة بين الغناء والعروض العربي، ونجد صاحب الأغاني يقول في أول كتابه: "إنه سيذكر اللحن وعروضه، فإن معرفة أعاريض الشعر توصل إلى معرفة تجزئته وقسمة ألحانه".

ومهما يكن فقد كانت هناك علاقة واضحة في العصر العباسي بين الغناء وأوزان الشعر، ولعل أهم ما يلاحظ بصدد ذلك أن الشعراء نَحَّوا الأوزان الطويلة، المعقدة، وخصصوها بالشعر التقليدي: شعر المديح ونحوه، وكانت هذه الأوزان توجد في العصر الإسلامي مع الغناء، أما في هذا العصر فإنها تكاد تختفي إلا أن تجزَّأ أو يدخلها فنون من التحريفات والزحافات.

ومن يدرس العروض الذي اكتشفه الخليل يحس مدى الصعوبات التي أحدثتها هذه الزحافات في دراسة الشعر العربي، وأكبر الظن أن الخليل عمد إليه عمدًا ليستطيع الشعراء أن يجدوا منها منفذًا إلى الملاءمة بين الأوزان القديمة ونغم الغناء الجديد. وإن كثيرًا من هذه الزحافات ليُحيل الوزن عن صورته القديمة، وغاية ما في الأمر أننا ألفنا أن نقول إن البحر حدث فيه زحاف ونحوه، وإنه لا يزال على حاله، ولم يخرج عن محيطه[٦].

وأما المضارع فقد ذكر أبو العلاء أن منه عروض أبي العتاهية[٧]:

أيا عُتْبَ ما يضرُّ ** كِ أَنْ تُطْلِقِي صِفادي

ومن أمثلته قول سعيد بن وهب[٨]:

لقد قلت حين قُرِّ ** بت العيسُ يا نَـوَارُ

قفوا فاربعوا قليلًا ** فلم يربعوا وساروا

وهناك وزن آخر استحدثه العباسيون وهو الخبب أو المتدارك، ومن أمثلته قول أبي العتاهية[٩]:

هَمَّ القاضي بيتٌ يُطْرِب ** قال القاضي لما طُولِب

---

١ / البيان والتبيين ، ج١، ٣٨٥.

٢ / إخوان الصفا "طبع مصر" ١/ ١٤٤.

٣ / معجم الأدباء "طبع أوروبا" ٤/ ١٨٢.

٤ / ابن خلكان "طبع مصر" ١/ ١٧٢.

٥ / الفصول والغايات ص٨٨. الفن ومذاهبه في الشعر العربي ،ص، ٧٢.

٦ / الفن ومذاهبه في الشعر العربي ، ص، ٧١.

٧/ الفصول والغايات ص١٣٢. والصفاد: القيد.

٨/ أغاني "ساسي" ٢١/ ٦٩. والعيس: الإبل. أربعوا: أقيموا.

٩/ مروج الذهب ٧/ ٨٧.

ما في الدنيا إلا مذنب ** هذا عذر القاضي واقلب

ويظهر أن أبا العتاهية كان مشغوفًا بهذه الأوزان القصيرة؛ فقد عرف بأن له أشعارًا لا تدخل في العروض[١]، العروض[١]، ولكن الرواة فيما يظهر أهملوها[٢]. ويقول ابن قتيبة في ترجمته: "وكان لسرعته وسهولة الشعر عليه ربما قال شعرًا موزونًا يخرج به عن أعاريض الشعر وأوزان العرب، وقعد يومًا عند قَصَّار فسمع صوت مِدَقَّةٍ فحكى ذلك في ألفاظ شعره وهو عدة أبيات منها:

للمنون دائرات يدرن صرفها ** هن ينتقيننا واحدًا فواحدا

وقال أيضًا:

عُتْبُ ما للخيال ** خبريني ومـــالي
لا أراه أتـــاني ** زائرًا مـــذ ليالي
لو رآني صـــديق ** رقَّ لي أو رثى لي
أو يـراني عدوي ** لانَ من سوء حالي"[٣]

والمسألة لم تكن سهولة شعر وسرعته كما يقول ابن قتيبة، بل كانت هذا الغناء العباسي وما يستلزمه من أوزان وأنغام جديدة.

ومهما يكن فإن الغناء نوَّع أوزان الشعر في العصر العباسي تنويعًا واسعًا؛ فبينما كان يقضي على بعض الأوزان الطويلة المعقدة -أو يكاد- كان يشيع الأوزان الأخرى التي تتلاءم معه من مثل المتقارب والرمل والهزج والخفيف؛ فإن أَلَمَّ بالأوزان الطويلة أخذ ينوع فيها بما يحدثه من مشطوراتها ومجزوءاتها، أو من اختلاف في ضروبها وأعاريضها. وقد فتح الخليل -كما قدمنا- أبواب الزحافات في العروض ليعدل الشعراء في إيقاعات الأوزان القديمة ونغماتها، وكأن هذه الزحافات خروق في الرُّقُم الموسيقية وضعها الخليل لينفذ منها الشعراء إلى التعديل في الأوزان التي كان يتطلبها الغناء العباسي.

ونستطيع الآن أن نفهم لماذا أدخل الخليل دراسة الزحاف في العروض، ولماذا ترك دوائر مفتوحة، وجاء فيها بأوزان مهملة؛ فقد كان يشعر بحاجة الغناء إلى التجديد في أوزان الشعر، ولو أنه عاش إلى عهد أبي العتاهية لنبه على ما استحدث من أوزان هو وغيره من الشعراء.

وأكبر الظن أن عروض الخليل لم تضبط كل ما عُرف في عصورها من أوزان في الشعر العباسي؛ بل إنا لنراها تقصِّر في ضبط بعض أوزان الشعر القديم؛ فهنالك قصائد أثرتْ عن العصر الجاهلي وهي خارجة عنها، يقول أبو العلاء: "وقصيدة عبيد: أَقْفَرَ مِنْ أَهْلِه مَلْحُوبُ، وزنها مختلف، وليست موافقة لمذهب الخليل في العروض، وكذلك قصيدة عدِيّ بن زيد العبادي:

قد حان أن تصحو لو تقصر ** وقد أتى لما عهدت عُصُرْ[٤]

ومن ذلك قصيدة المرقش:

هل بالديار أن تجيب صَمَم ** لو أن حيا ناطقًا كلَّم

فإنها غير مستقيمة الوزن كما يلاحظ صاحب الصناعتين[٥]. ومن ذلك نونية سُلْميّ بن ربيعة السابقة:

إن شِواءً ونشوة ** وخَبَبَ البازل الأمون

فقد لاحظ التبريزي أنها خارجة عن العروض التي وضعها الخليل[٦]. وهناك قطع صغيرة منتشرة في كتب الأدب من الصعب أن تضبط على أوزان الخليل؛ ولكن مهما يكن فإن جهده في هذا الباب كان ممتازًا.

وصنيع الغناء في أوزان الشعر العباسي يجعلنا نفكر فيما يمكن أن يكون قد صنعه في القوافي؛ إذ

---

١ / الأغاني "دار الكتب" ٤/ ١٣.

٢ / وممن اشتهر بصياغة الشعر على أوزان جديدة أيضًا رزين بن زندورد مولى طيفور بن منصور الحميري خال المهدي؛ المهدي؛ فأكثر شعره كان يخرج به عن العروض، وكان ينحو في ذلك نحو عبد الله بن هارون بن السميدع البصري مؤدب آل سليمان. انظر معجم الأدباء ١١/ ١٣٨ وتاريخ بغداد ٨/ ٤٣٦ والأغاني "دار الكتب" ٦/ ١٦.

٣/ الشعر والشعراء ص٤٩٧. الفن ومذاهبه في الشعر العربي (ص: ٧٥)

٤ / الفصول والغايات ص١٣١.

٥ / الصناعتين "طبعة عيسى الحلبي" ص٣

٦ / شرح التبريزي على الحماسة ،ج٣،ص، ٨٣.

استحدث العباسيون المزدوج والمسمَّط[١]، أما المزدوج فلعل أول من استخدمه بشار بن برد[٢]، وأخذ الشعراء يستخدمونه من حوله وبعده في الشعر التعليمي، كما نرى في قصيدة بشر بن المعتمر التي رواها الجاحظ له في كتابه الحيوان[٣]، ولا نراه يشيع في الشعر الغنائي، وهو يتألف من شطرين على قافية ثم من شطرين آخرين وهكذا. وأما المسمَّط فيصاغ في أدوار متخالفة القوافي؛ غير أن كل دور يختم بشطر يتحد مع الدور الأول في قافيته. على أننا نجد في ديوان ابن المعتز منظومة على طراز الموشحات الأندلسية تمضي على هذا النحت:

أيا الساقي إليك المشتكى ** قد دعوناك وإن لم تسمع
ونديم همت في غُرَّتِهِ
وبشرب الراح من راحته
كلما استيقظ من سكرته
جذب الزق إليه واتكى ** وسقاني أربعًا في أربع

تستمر المنظومة على هذا النمط؛ غير أن هذه الموشحة منتحلة على ابن المعتز وهي لابن زهر الشاعر الأندلسي المشهور[٤]، والشائع أن الموشحات فن أندلسي خالص[٥].

ومما ينسب إلى هذا العصر ضرب يسمى المواليا، وهو شعر ينظم من بحر البسيط بعبارة عامية ملحونة وتقفي شطوره أربعة أربعة، ويقولون إن مولاة للبرامكة هي التي بدأت هذا الضرب[٦]. وهو الذي يعرف عندنا الآن بالموّال. على أن هذه القصة يحوطها شيء من الغموض. ومهما يكن فإن الغناء العباسي لم يؤثر تأثيرًا واسعًا في القوافي، على نحو ما أثر في الأوزان؛ إذ يترك ذلك للأندلس، والغناء هناك وما نشأ معه من موشحات وأزجال.

في نظرة شاملة على الشعر العباسي، نجد تأثير الحياة الجديدة اجتاحت موجة التجديد الشعر على كافة مستويات اللفظ والمضمون، والإيقاع الموسيقي الذي شهد حالة من الثبات في كافة العصور السابقة؛ إذ يعد الوزن والقافية ركنين أساسيين يقوم عليهما الهيكل العام للقصيدة العربية؛ ويبدو أن ثورة التجديد لم تقفل عن تحريك الايقاع الموسيقي المتمثل بالأوزان والقوافي فقد عمد بعض الشعراء الثائرين على التقاليد الموروثة إلى تبديها وخلخلة الثابت منها ولذلك فإننا تجدهم قد أخذوا ينوعون في القوافي والأوزان لتنسجم والغاية الغنائية التي أصبحت القصائد تنظم لأجلها في ذلك العصر؛ متبدية في : لجوئهم إلى الأوزان الملائمة للغناء والموسيقى كالمتقارب، والهزيج والخفيف والرمل، وتطويعًا للوفاء بمتطلبات الغناء الحديث؛ في اختراعهم أوزانًا جديدة فجاء بعضها على الدوائر القديمة ، منها: المستطيل والممتد والمتوافر والمتئد والمنسرد والمطرد ومنها ماجاء مخالفًا للأوزان القديمة كالسلسلة والمواليا ، والدوبيت والقوما وكان كان[٧].

فقد وجد ذلك استحسانًا وتشجيعًا من الحكام والأمراء؛ فظهرت قصائد تعرف بالمخمسات والمسمطات والأراجيز التي تتيح للشاعر حرية أكبر للتنويع والقوافي والأوزان، كما ظهر لون جديد من القصائد وهو ما اصطلح عليه بالمزدوج والمسمط والمخمس.

ويستطيع الباحث أن يرجع إلى الرمل مثلًا، ووزنه فاعلاتن؛ فيدرك أنه حينما يلمُّ به الزحاف في الجزء الأول ويصبح فعلاتن، يتغير عن صورته الأولى ويصير سريعًا لسرعة حركاته. ومن المعروف أن الحركات القصيرة تجعل البحر سريعًا، بخلاف الطويلة فتجعله بطيئًا. وتلائم الأولى الموضوعات العتيقة؛ بينما تلائم

---

١ / نقد النثر، لابن قدامة، ص٦٤.
٢ / أغاني "طبع دار الكتب" ٣/ ١٤٥.
٣ / الحيوان ٦/ ٤٥٥. الفن ومذاهبه في الشعر العربي (ص: ٧٦
٤ / معجم الأدباء ٧/ ٢٢، وانظر المغرب في حل المغرب "الطبعة الثانية بدار المعارف" ١/ ٢٧٢.
٥ / انظر هنا العصر العباسي الأول للمؤلف "دار المعارف" ص١٩٩.
٦ / الدمنهوري على الكافية ، ص، ٣٦
٧ / الثقافات الأجنبية وصداها في الأدب، ص١٦٥.

الأخرى الهدوء والحزن وما إليها.

وهذا التغيير الذي ألم بالرمل بسبب الزحاف نراه يلم أيضًا بسببه في الأوزان والبحور الأخرى، وهو جانب نرى أصوله في الشعر القديم؛ إلا أن العباسيين أكثروا منه كثرة مفرطة، فما يزالون يحرفون في الأوزان، حتى لينتهي بهم هذا التحريف إلى استحداث أوزان جديدة، ويقول أبو العلاء: إنهم استحدثوا في هذا العصر

المقتضب والمضارع اللذين سجلهما الخليل وليس لهما أصل في الشعر القديم١، وهي ملاحظة جيدة، وسبق أن رأينا المجتث عند الوليد بن يزيد، وقد أكثر منه العباسيون؛ إذ نجده كثيرًا عند بشار ومطيع وأبي نواس وأبي العتاهية وأضرابهم، وأما المقتضب فهو عباسي، واستعمله الشعراء في ندرة، ومن أمثلته قول أبي نواس[١]:

حامل الهـوى تعب ** يستخفه الـــطَّرَب
إن بكى يحقُّ لـــه ** ليس ما به لَـــعِبُ
تضحـــــكين لاهية ** والمـــــــحب ينتحب
كلمـــا انقضى سبب ** منـــــك جائني سبب
تعجبين من سقمي ** صحتي هـــي العجب

يقول أبو العلاء المعري:" إن المولدين استحدثوا في العصر العباسي المقتضب والمضارع، وأن الخليل سجلهما، وليس لهما أصل في الشعر القديم"[٢]

ومما جاء في العمدة": وأما عقبة بن رؤبة بن العجاج فإنه أنشد عقبة بن سلم بحضرة بشار أرجوزة، فقال: كيف ترى يا أبا معاذ؟ فأثنى بشار كما يجب لمثله أن يفعل، وأظهر الاستحسان، فلم يعرف له عقبة حقه، ولا شكر له فعله، بل قال له: هذا

طراز لا تحسنه، فقال له بشار: ألمثلي يقال هذا الكلام؟ أنا والله أرجز منك ومن أبيك ومن جدك، ثم غدا على عقبة بن سلم بأرجوزته التي أولها:

يا طلل الحي بذات الصمد ** بالله خبر كيف كنت بعدي

فضح بها ابن رؤبة فضيحة ظاهرة كان غنياً عنها..وكان في البحتري إعجاب شديد، إذ أنشد يقول: ما لكم لا تعجبون؟ أما حسن ما تسمعون؟ فأنشد المتوكل يوماً قصيدته التي أولها:

عن أي ثغر تبتسم ** وبأي طرف تحتكم؟

وأبو العباس الصيمري حاضر، فلما رأى إعجابه قام حذاءه فقال:

من أي سلح تلتقم؟ ** وبأي كف تلتطم؟
ذقن الوليد البحتري ** أبي عبادة في الرحم

فولى البحتري وهو غضبان، فقال: وعلمت أنك تنهزم فضحك المتوكل حتى فحص برجليه، وأعطى الصيمري جائزة سنية[٣].

ومن قول بشار من مجزوء الوافر: ربابـــــــة ربّة البيت ** تصبّ الخلّ في الزيت
لها عشر دجـــــاجات ** وديك حسن الصوت[٤]

المبحث الرابع

أثر الثقافات الأجنبية في الموضوعات التي طرقها بشار بن برد

أولاً: الشعوبية:

نشأت ظاهرة الشعوبية كنتيجة طبيعية للصدام السياسي والحضاري بين العرب والموالي، فتعصب العرب لجنسهم واحتقروا الموالي، وتعصب الموالي -الفرس والترك- لأرومتهم، ورأي الفرس أنهم ذوو

---

١ / معاهد التنصيص ج١، ٣٠. الفن ومذاهبه في الشعر العربي ، ص،٧٣.
٢ / الفصول والغايات،ج١، ص١١٥.
٣ / العمدة في محاسن الشعر وآدابه ،ج١، ص،٢٠٤.
٤ / الأبيات من مجزوء الوافر.

سابقة في الحضارة والمدنية وأن العرب طارئون على هذه الحضارة. وغلبت هذه النزعة من العصبية على الدولة العباسية وأذكى نيرانها مساندة العباسيين للموالي وتقديمهم إياهم على العرب.

وبلغت الشعوبية ذروة خطورتها في القرن الثالث الهجري، حيث نشط الفرس في الهجوم على العرب والتفتيش عن مثالبهم، وتجريدهم من كل ميزة وفضيلة، وربما ساعد على ذلك أن الخلفاء العباسيين لم يتعصبوا للعرب كجنس بقدر ما تعصبوا للإسلام كدين يسوي بين الناس في الحقوق والواجبات، ولا يرى للعرب فضلاً على سائر الأجناس إلا بالتقوى.

وثمة نزعات ثلاث تألفت ظاهرة الشعوبية من مجموعها:

النزعة الأولى: وتذهب إلى أن العرب خير الأمم؛ لأنهم ظلوا ينعمون بالاستقلال والحرية، بالرغم من أنهم كانوا يتاخمون أكبر دولتين: الفرس والروم، كما أنهم يتمتعون بصفات أخلاقية امتازوا بها عن غيرهم، كالكرم والوفاء والنجدة، بالإضافة إلى أن الإسلام -وهذا هو العامل الأهم- نزل بأرضهم، ورسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ - منهم، وهم حاملو لواء دعوته إلى الناس، فكل من أسلم ففي عنقه للعرب منَّة لا تقدر.

النزعة الثانية: ترى أن العرب ليسوا بأفضل الأمم، فالأمم كلها متساوية، يؤيد ذلك قول الله تعالى: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ"[1].

ويمثل هذه النزعة وينتصر لها العلماء والصالحون من العرب العجم جميعًا.

النزعة الثالثة: يؤمن أصحاب هذه النزعة بأفضلية العجم على العرب، ويفندون الحجج التي ارتكز عليها أصحاب النزعة الأولى في تفضيل العرب، فيقولون: إن الإسلام ليس دينًا عربيًا أنزله الله لهداية العرب وحدهم، بل هو دين عام للناس أجمعين، ودعوته موجهة لكل الأجناس، وليس للعرب ما يمتازون به عن غيرهم.

وما افتخروا به من سجايا كريمة وشيم نبيلة كالكرم والوفاء والنجدة وغيرها، ليست قصرًا عليهم بل يشاركهم فيها سائر الأمم.

وقد أطلقت الشعوبية على هذه النزعة الأخيرة حتى غدت مرادفة لها، فصنف العجم كتبًا في مثالب العرب ومناقب العجم، بل تجرأ الشعوبيون فوضعوا الأحاديث ونسبوها زورًا للنبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ -، إثباتًا لفضيلة العجم[2].

وهنا نجد مشكلة المساواة بين الموالي والعرب تثار في نطاق واسع تحت اسم الشعوبية، وكان واضحًا أن الموالي يسبقون العرب في العلم، إذ كان منهم أكثر العلماء لا في العصر العباسي وحده، بل منذ العصر الأموي، وطبعًا كانوا يسقونهم في الزراعة والحرف المختلفة، وهم اليوم يسبقونهم في السياسة، وأخذت الدولة تفيد فائدة واسعة من النظم الساسانية القديمة، كما أخذت تنظم ترجمة الثقافات الأجنبية. وأصبحت كثرة الأدباء كتّابًا وشعراء من الموالي وخاصة الفرس؛ إذ كان ابن المقفع أكبر كتّاب عصره فارسيًا، وكذلك كان بشار بن برد زعيم المجددين في الشعر. كذلك هَيَّأ لفتح هذا الباب الكبير: باب الشعوبية، وواضح من اسمها أنها تبحث في فضائل الشعوب وأيها يتقدم غيره من الأمم، وقد تحولوا بها من المساواة التي كانوا يريدونها بينهم وبين العرب إلى إثبات أنهم فوقهم وأفضل منهم، وانبرى لذلك جماعة من علمائهم جعلوا همهم الحط من شأن العرب في جاهليتهم بما كانوا فيه من البداوة والفظاظة ولبعدهم عن أسباب المدنية والحضارة، ووضعوا كثيرًا من الكتب في مثالبهم، يذكرون فيها مثالب القبائل قبيلة قبيلة، واشتهر بالكتابة في هذه المثالب أبو عبيدة وعَلَّان الشعوبي والهيثم بن عديّ، وتعرضوا لفضائلهم ينقضونها على نحو ما نقض سهل بن هارون فضيلة الكرم في رسالته التي رواها الجاحظ في فاتحة بخلائه، ووضعوا عليهم كثيرًا من القصص وأنطقوهم أشعارًا لم ينظموها، وتعرضوا لأدواتهم وأسلحتهم في القتال ولما كانوا يأخذون به أنفسهم في الخطابة من الاعتماد على العصيّ والقسيّ. وَرَدّ عليهم الجاحظ في البيان والتبيين١ وابن قتيبة٢ وغيرهما ردًا مفحمًا. وكانت هذه الدعوة من غير شك سيئة لأنها تدعو إلى تفريق الجماعة

---

[1] / سورة الحجرات، الآية ١٣.

٢ / تفسير الماتريدي (تأويلات أهل السنة)،محمد بن محمد بن محمود، أبو منصور الماتريدي (ت: ٣٣٣هـ)،المحقق: د. مجدي باسلوم، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، لبنان ط١، ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م، ج١، ص٥٦

الإسلامية وتثير الأحقاد والضغائن بين شعوبها؛ غير أن ثورة الفرس -فيما يظهر- كانت جامحة، وكان يمدها من اعتلوا منهم المناصب الكبرى في الدولة وخاصة البرامكة، فانقلبت تلك الدعوة إلى ما يشبه ثورة على العرب، وأُغْرِي شعراؤهم بإعلانها؛

أما بشار فيعتبر شاعر الشعوبية الأول بحق؛ إذ كان شديد الشغب والتعصب للعجم[١]. مستعملًا كل الأساليب والصور ليعبر عن شعوبيته، والفخر بالأعاجم، والإزراء على العرب والتعصب عليهم، ورفض ولائهم وتوبيخ المنتسبين إليهم.

فمن شعره الذي استعمل في شعوبيته وهي: الفخر بالعجم ويُرْوَى أنه دخل على المهدي وقد عرف ثورته على العرب وشعوبيته فقال له: فيمن تعتد يا بشار؟ فرد عليه: أما اللسان والزي فعربيان وأما الأصل فعجمي كما قلت في شعري يا أمير المؤمنين:

ونبئت قومًا بهم جِنَّةٌ ** يقولون من ذا وكنت العَلَم
ألا أيها السائلي جاهدًا ** ليعرفني أنا أنف الكرم
نمتْ في الكرام بنو عامر ** فروعي وأصلي قريش العجم[٢]

وسأله المهدي: فمن أي العجم أصلك؟ فقال: من أكثرها في الفرسان، وأشدها على الأقران، أهل طخارستان[٣]. ولا يغضب المهدي ولا يثور على نحو ما غضب وثار هشام بن عبد الملك في العصر الأموي حين افتخر إسماعيل بن يسار النسائي في بعض مديحه له بآبائه الفرس[٤]

فإذا بنا نجد بشارًا الذي كان يفخر في عصر بني أمية بمواليه القيسيين في مثل قوله:

أمنتُ مضرة الفحشاء أني ** أرى قَيْسًا تضرُّ ولا تُضَارُ
كأن الناس حين تغيب عنهم ** نبات الأرض أخطأه القِطَارُ

وقوله:

إنني من بني عُقَيل بن كعب ** موضَع السيف من طُلَى الأعناق

يتغيَّر على العرب وكأنما يشعر أن الحياة واتته وأنها استقامت على هواه؛ فيتبرأ من ولائهم ويرده عليهم، فولاؤه لربه يقول:

أصبحت مَوْلَى ذي الجلال وبعضهم ** مولى العُرَيب فخذ بفضلك فافْخَرِ
مولاك أكرم من تميم كلها ** أهل الفعال ومن قريش الْمَشْعَرِ
فارجع إلى مولاك غير مدافع ** سبحان مولاك الأجلِّ الأكبر

ويفخر بقومه فخرًا عنيفًا، ويحاول الغض من العرب بكل ما وسعه، ومما يصور عنف ذلك عنده قصيدته:

هل من رسول مخبر ** عني جميع العرب
بأنني ذو حسب ** عالي على ذي حسب
جدي الذي أسمو به ** كسرى، وساسان أبي
وقيصر خالي إذا ** عددت يومًا نسبي[٥]

ومضى يتحدث عن أجداده من الفرس وأخواله من الروم وأنهم كانوا ملوكًا متوجين يتحلون بالجواهر ويلبسون الفراء الثمينة، وذكروا ما كانوا يضربونه حولهم من الحجابة، وكيف كان الوصفاء يسعون بين أيديهم بصحاف الذهب وأوانيه. وافتخر بأن الدولة العباسية قامت على حرابهم، وعدَّد كثيرًا من مظاهر الخشونة عند العرب، وهي شعوبية جامحة دفعته دفعًا إلى أن يهجو العرب بقصيدة أخرى أكثر مرارة[٦].

ويمضي بشار في افتخاره بالفرس، وتمجيده أسلوب حياتهم وعيشهم المترف، الذي هو بعيد كل البعد عن ذلك العيش الجديب الذي عليه العرب الذين انقلب عليهم الزمان فرفع من شأنهم، وأذل آخرين كانوا أعزاء.

---

١ / الأغاني ، دار الكتب ج٣، ص ١٣٩.
٢ / الديوان، ج ١، ٣٧٧.
٣ / أغاني "طبع دار الكتب" ج٣ ١٣٨ .
٤ / أغاني "طبع دار الكتب" ٤/ ٤٢٢.
٥ / ديوان بشار، ج١، ص٣٧٧.
٦ / ديوان بشار، ج٣، ص ٢٩٩.

ومما يروى أن أعرابيًا دخل على مجزأة بن ثور السدوسي وبشار عنده وعليه بزة الشعراء، فقال الأعرابي:" من الرجل ؟ فقال شاعر، فقال أمولى هو أم عربي ؟ فقالوا بل هو مولى، فقال الأعرابي ما

للموالي والشعر ؟ فغضب بشار وسكت هنيهة، ثم قال:" أتأذن لي يا أبا ثور ؟ قال قل ما شئت يا أبا معاذ، فأنشد:

خليلي لا أنـــــام على اقتسار ** ولا آبى على مـــــولى وجار
سأخبر فاخر الأعـــراب عني ** وعنه حين تأذن بالفـــــــخار
أنا ابن الأكرميـــن أبًا وأمًـــا ** تنازعني المـــرازب من صخار
وتريد بخطبة كسر المـــــوالي ** وينسيك المـــــكارم صيد فأر
وتغدو للقنافذ تـــــــدربها ** ولم تعقـــل بدراج الديـــــار
وتتشح الشمـــــــال للابسيها ** وترعى الضـــــــأن بالبلد القفار[١]

و يتحرج بشار من إعلان ضيقه وتبرمه من رؤية مثل هذا العربي الدنس في مجتمعه الجديد؛ وهم عليته سادته، والعرب الأجلاف الأنجاس دخلاء عليه ينبغي أن يطاردوا فيه، فيقول:

مقامك بيننا دنس علينا ** فليتـــــك غائب في حـــر نار
وفخرك بين خنزير وكلب ** على مثلي من الحدث الكبار[٢]

ويسأل المهدي بشارًا من أي العجم أنت؟ فيقول من أكثرها في الفرسان، وأشدها على الأقران، أهل طخارستان، ثم ينشد:

وهجاني معشر كلـــــهم ** حمـــــــق دام لهم ذاك الحمق
ليس من جرم ولكن غاظهم ** شرفي العارض قد سد الأفـــق
من خراسان وبيتي في الذرا ** ولدى المسعاة فـــرعي قد سمق[٣]

الصورة الثانية: التبرؤ من العرب والحض على خلع ولائهم.

أما المجرى الثالث الذي جرى فيه الشعراء الشعوبيون فهو التبرؤ من العرب والانتساب إليهم، والحض على خلع الولاء لهم، بل لقد مضى بعضهم شوطًا أبعد من ذلك، وهو تأنيب وتوبيخ من يتشبث بهذا الولاء وتعنيف من يحاول من الموالي الانتساب إلى العرب.

وها هو ذا بشار يحرض غيره من الموالي على ذلك، ويشمخ بأنفه متعاليا بأنه قد تحرر وتسامى، ووضع نفسه حيث يجب أن يضعها، وعرف لها قدرها، ويريد للآخرين أن ينهجوا نهجه، وأن يسيروا على دربه المتصاعد النبيل:

أصبحت مَوْلَى ذي الجلال وبعضهم ** مولى العُرَيب فخذ بفضلك فافْخَرِ
مولاك أكرم من تميم كلـــــــها ** أهـل الفعال ومن قريش المشعرِ
فارجـــع إلى مـــولاك غير مدافـــع ** سبحـان مولاك الأجل الأكـــــرم[٤]

بعدما الذي كان يفخر في عصر بني أمية بمواليه القيسيين في مثل قوله:

أمنتُ مضرة الفحشاء أني ** أرى قَيْسًا تضرُّ ولا تُـــــضَارُ
كأن الناس حين تغيب عنهم ** نبات الأرض أخـــطأه القِطَارُ[٥]

وقوله:

إنني من بني عُقَيل بن كعب ** موضَع السيف من طُلَى الأعناق[٦]

---

١ / ديوان بشار، ج٤، ص١١٥.
٢ / الأغاني ج٣، ص٢٢٩، وديوان بشار ج٣، ص١١٥
٣ / الأغاني ج٣، ص٢٠١. ديوان بشار ج٤، ص١١٥.
٤ / الأغاني ، دار الكتب، ج٣، ص ١٣٩
٥ / أغاني "طبع دار الكتب" ٣/ ١٣٩.وديوان بشار "طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر" ٣/ ٢٥٠.
٦ / الأغاني ،ج ٣/ ١٣٩.

يتغيَّر على العرب وكأنما يشعر أن الحياة واتته وأنها استقامت على هواه؛ فيتبرأ من ولائهم ويرده عليهم، فولاؤه لربه.

وعرف العرب من أهل عصره له هذا العمل التخريبي الخطير؛ فيلومه شريف بني زيد على ذلك، فيقول له:" قد أفسدت علينا موالينا، تدعوهم إلى الانتفاء منا، وترغبهم في الرجوع إلى أصولهم، وترك الولاء ، وأنت معروف الأصل" فقال له:" والله لأصلي أكرم من الذهب، ولفرعي أزكى من عمل الأبرار، وما في الأرض كلب يود أن يتسبدل نسبه بنسبك"[١]

وواضح أن عوامل متشابكة أثرت في شخصية بشار الأدبية؛ فقد كان مولى، وكان يحس بعمق أنه قن ابن قن وأنه من أسرة فقيرة متخلفة في المجتمع، فانطوى على مرارة ولَّدت فيه ميلا قويًا إلى العُدوان، وقد ورث عن جنسه الفارسي مزاجًا حادًا واندفاعًا شديدًا نحو المتع الحسية.

وهذه كله مرجعه لتلك التيارات الجارفة التي ظهرت أبان العصر العباسي؛ فما أستطاع الشاعر الفكاك عنها بل هضمها جميعًا ؛ فظهرت في أشعاره وسلوكه المنحرف ، الذي كانت نتيجته أن لقى حتفه حقيرًا ذليلًا ، ولم يجده ما يبكى عليه سوى تلكم المرأة العجمية السوداء.

ثانيًا ـ الزندقة والإلحاد:

لعل من الأسباب التي أدت إلى شيوع الزندقة وقوة تيارها في العصر العباسي: نشاط الحركة العلمية العقلية في هذا العصر؛ إذ لم يقتصر البحث على العلوم الدِّينية النقلية من جمع أحاديث وتفسير للقرآن، واستنباط للأحكام الشرعية، بل تعداها إلى دراسة المنطق والكلام والفلسفة وغيرها من العلوم التي تثير في النفس والعقل من الحيرة والشك أكثر مما تثبت فيهما من الإيمان واليقين.

وكذلك فإن كثيرًا من الفرس ساءهم ألا يحققوا ما يطمحون إليه من مطامع، ورأوا أن الإسلام ما دام قويًا، فلن يتحقق لهم ما يرنون إليه؛ ولذلك عملوا على هدم الإسلام من داخله عن طريق نشر المبادئ المانوية والزرادشتية والمزدكية، فكان ذلك عاملاً مباشرًا أسهم في ذيوع الزندقة وانتشار أفكارها الهدامة.

وتعني الزندقة اعتناق الإسلام ظاهرًا، واعتناق أديان الفرس باطنًا، وخاصة مذهب ماني، وإنما أظهروا الإسلام رغبة في إفساده وهدم تعاليمه، أو لنيل الجاه والظفر بالسلطان.

واجتهد الخلفاء العباسيون في تعقب الزنادقة ومحاكمتهم، كما شجعوا المتكلمين وأهل الجدل على تأليف الكتب للرد على الزنادقة، وأمر الخلفاء بمناظرتهم واستتابتهم، فإن تابوا وإلا قتلوا.

وأوصى الخليفة المهدي ابنه وولي عهده موسى الهادي - إذا آل إليه أمر الخلافة من بعده- بتعقبهم والقضاء عليهم.

واستحدث هارون الرشيد وظيفة جديدة سمى صاحبها بـ " صاحب الزنادقة " مهمته امتحان كل من يتهم بالزندقة ومحاكمته إن ثبتت عليه التهمة.

وذكر الطبري والمسعودي أن المأمون بلغه خبر عشرة من الزنادقة في البصرة، فبعث إليهم، وامتحنهم واحدًا واحدًا، وأظهر لهم صورة ماني، وأمرهم أن يتفلوا عليها ويبرءوا منها، فلما أبوا أمر بهم فقتلوا.

وثمة نزعة إيمانية صادقة ظهرت كردِّ فعل لنزعة الإلحاد والزندقة، حيث كثر العلماء المؤمنون الذين وقفوا حياتهم على خدمة الدِّين، والتمسك بآدابه ومبادئه. وفي الحق أن هذه النزعة الإيمانية كانت هي الغالبة على المجتمع العباسي؛ إذ كان الزنادقة قلة إذا قيسوا بالمؤمنين الأتقياء[٢].

وكان بشار يرمي بالزندقة، وقيل أن الخليفة المهدي قتله لزندقته وهو القائل:

كيف يبكي لمحبس في طلــول ** من سيبكي لحبس يوم طويل

إنّ في البعث والحساب لشغلا ** عن وقوف برسم دار محــيل

وهذان البيتان يدلان على صحة إيمانه بالبعث. وكان مطبوعاً جدّاً لا يتكلف، وهو أستاذ المحدثين وسيدهم، ومن لا يقدم عليه، ولا يجارى في ميدانه. والصحيح عند أهل العلم أن المهدي قتله بهجوه يعقوب بن داوود

---

١ / الأغاني ج٣، ص٢٠٣.

٢ / تفسير الماتريدي، ج١، ٥٦.

وزيره بقوله[١]:

بنِي أميةَ هُبّوا طَـــــــالَ نوْمُكْمُ ** إنّ الخليفةَ يعقوبُ بنُ دَاوُد
ضاعتْ خلافَتُكُمْ يَا قومُ فالْتَمِسُوا ** خَليفةَ الله بَين الزق وَالْعود

وقال قوم: بل قتله على قوله:

لا يؤيسنك مــن مخبأة ** قول تغلظه وإن قبـــــحا
عسر النساء إلى مياسرة ** والصعب يمكن بعدما جمحا

فقال المهدي: رميت جميع نساء العالمين بالفاحشة. والقول الأول أثبت.[٢]

وكان بشار يدين بالرجعة ويكفر الجميع من الأمم ويصوب رأي إبليس في تقديم النار على الطين، وقد ذكر ذلك في شعره حيث يقول:

الأرض مظلمة والنار مشرقة ** والنار معبودة مذ كانت النار

رأيت في بعض الكتب أن عبد الله بن ظاهر لما قدم نيسابور صحبه من أولاد المجوس شاب متطبب يدعي تحقيق الكلام فأظهر مسألة تحريق النفس بالنار، وكان يزعم أن الجسد منتن في حال الحياة فإذا مات فلا حكمة في دفنه والتسبب إلى زيادة نتنه، وإن الواجب إحراقه وإذراء رماده، فقيل لبعض الفقهاء: إن الناس قد افتتنوا بمقالة المجوسي، فكتب الفقيه إلى عبد الله بن طاهر أن اجمع بيننا وبين هذا المجوسي نسمع منه؛ فاجتمعوا بمجلس عبد الله بن طاهر، فلما تكلم المجوسي بمقالته تلك قال له الفقيه: أخبرنا عن صبي تداعته أمه وحاضنته أيهما أولى به، فقال: الأم، فقال: إن هذه الأرض هي الأم منها خلق آدم وأولى بأولادها أن ترد إليها، وأنشد لأمية بن أبي الصلت:

والأرض معقلنا وكانت أمنا ** فيها مقابرنا ومنها نولد

فأفحم المجوسي وقطعه[٣].

الموضوعات والفنون الأدبية التي اتخذها الزنادقة مآرب ودروبًا لتعبر عن نفسها من خلالها فأهمها وأوضحها: الحكمة والزهد، واللهو والمجون ، والهجاء والمعابثات والمكايدات التي كانت بين الشعراء الزناديق ، وسنتاول بعض منها بالشيء من التفصيل والبيان فيما يلي:

١ـ الزهد والحكمة

من ذلك قول بشار الذي ذهب فيه مذهب المجوس من تفضيل النار على التراب، وتفضيل إبليس على آدم ؛ إذ يقول:

وكان واصل بن عطاء قبيح اللثغة شنيعها، وكان طويل العنق جدا، ولذلك قال بشار الأعمى:

ما لي أشايع غـزالا له عنق ** كنقنق الدوّ إن ولى وإن مثلا
عنق الزرافة ما بالي وبالكم ** أتكفرون رجالا أكفروا رجـلا

فلما هجا واصلا وصوب رأي إبليس في تقديم النار على الطين، وقال:

الأرضُ مظلمةٌ والنارُ مشرقةٌ ** والنارُ معبودةٌ مذ كانتِ النارُ

وجعل واصل بن عطاء غزالا، وزعم أن جميع المسلمين كفروا بعد وفاة الرسول صلّى الله عليه وآله، فقيل له: وعلي أيضا؟ فأنشد[٤]:

وَمَا شَرّ الثّلاثَةِ أُمَّ عَمرو ** بصاحبِكِ الذي لا تَصبَحينَا

قال واصل بن عطاء عند ذلك: «أما لهذا الأعمى الملحد المشنف المكني بأبي معاذ من يقتله. أما والله لولا أن الغيلة سجية من سجايا الغالية «٣» ، لبعثت إليه من يبعج بطنه على مضجعه، ويقتله في جوف منزله وفي يوم حفله، ثم كان لا يتولى ذلك منه إلا عقيلي أو سدوسي» .

---

١ / معاهد التنصيص على شواهد التلخيص (١/ ٣٠٢)

٢ / طبقات الشعراء لابن المعتز ، ص، ٢٥.

٣ /أكثر هذا من الأغاني ٣: ١٣٤ وما بعدها. وفيات الأعيان (١/ ٤٢٢

٤ / جمهرة أشعار العرب (ص: ٢٧٤)

قال إسماعيل بن محمد الأنصاري، وعبد الكريم بن روح الغفاري: قال أبو حفص عمر بن أبي عثمان الشمري: ألا تريان كيف تجنب الراء في كلامه هذا وأنتما للذي تريان من سلامته وقلة ظهور التكلف فيه لا تظنان به التكلف، مع امتناعه من حرف كثير الدوران في الكلام. ألا تريان أنه حين لم يستطع أن يقول بشار، وابن برد، والمرعث، جعل المشنف بدلا من المرعث، والملحد بدلا من الكافر، وقال: لولا أن الغيلة سجية من سجايا الغالية، ولم يذكر المنصورية ولا المغيرية، لمكان الراء، وقال: لبعثت إليه من يبعج بطنه، ولم يقل: لأرسلت إليه، وقال: على مضجعه، ولم يقل: على فراشه.[١]

وشعره كثير وأخباره في كتاب الأغاني كثيرة وقيل عنه إنه كان يفضل النار على الأرض ويصوب رأي إبليس في امتناعه من السجود لآدم وقال:

إبليس أفضل من أبيكم آدم ** فتبيَّنوا يا مــعشر الأشرار
النّار عنصره، وآدم طينةٌ، ** والطّين لا يسمو سموَّ النّار[٢]

٢ـ في الهجاء والمعابثة والمكايدة:

عبر هؤلاء الزنادقة عن زندقتهم وإلحادهم عبر الهجاء والمعابثة والمكايدة التي كانت تدور بينهم، وكان بأسهم بينهم شديدًا، وكان الواحد منهم يتبرع بكشف ما خفي من سوأة أخيه، ويعريه تعرية يستعدي بها السلطة الحاكمة المتحفزة عليه؛ ومن ذلك ما كان بين بشار وحماد عجرد من الخصومة والضغينة التي كانت تدفع بكل منهما إغراء السلطة بغريمه،وإذا حماد يحرّش عيسى بن عمر والي البصرة من قبل السفاح ببشار، ويرميه بالكفر والزندقة ، فيقول:

قل لعيسى الأمير، عيسى بن عمرو ** ذي المساعي العظام من قحطان
ولعمري لأنت شر من الكلـــــــب ** وأولى منه بكـل هــــــوان[٣]

ولا يقف بشار مكتوف اليدين، إذ لم يكن أقل من صاحبه امتلاء بالشر وميلًا إليه ولم يكن كذلك أدنى قدرة من خصمه في استعداء السلطة وتحريشها بعدوه الملحد الزنديق، وهجا بشار حمادًا بأبيات يثبت فيها الزندقة عليه، فقال:

يا ابن نهيا رأس علي ثقيـل ** واحتمال الرأسين خطب جليل
ادع غيري إلى عبادة الاثنين ** فإني بواحـــــــد مشغول[٤]
يا ابن نهيا برئت منك إلى الل ** هـ جـــهارًا وذاك مني قلــيل

وكان بشار يرى رأي الكاملية وهو طائفة من الرافضة يأتي ذكرهم إن شاء الله تعالى في حرف الكاف في مكانه وفي ترجمتهم شيء من ذكر بشار بن برد المذكور ووفد على المهدي وأنشده قصيدة يمدحه بها منها:

إلى مـلك مـــــن هاشم في نبوة ** ومن حمير في الملك والعدد الدثر
من المشترين الحمد تندى من الندى ** يداه ويندى عارضـــاه من العطر

فلم يحظ منه فقال يهجوه:

خليفة يزني بعماته ** يلعب بالدبوق والصولجـــان
أبدلنا الله بـــه غيره ** ودس موسى في حر الخيزران

ومن شعر بشار بن برد:

يا ابن نهيا رأس علي ثقيل ** واحتمال الرأسين خطب جليل
ادع غيري إلى عبادة الاثنين ** فإني بواحـــــــد مشغول

---

١ / البيان والتبين ،ج١، ٣٨
٢ / ديوان بشار ،ج٤، ص ٧٨.، وانظر رسالة الغفران للمعري ص، ٣١٠.
٣ / الأغاني ، دار الشعب، ص ٥١٩٩.
٤ / الوافي بالوفيات (١٠/ ٨٧)

يا ابن نهيا برئت منك إلى اللـ ** هـ جـــهارًا وذاك مني قليل[١]

فأشاع حماد عجرد هذه الأبيات عن بشار وجعل حماد مكان بواحد عن واحد ليصحح عليه الزندقة والكفر بالله فما زالت الأبيات تدور أيدي الناس إلى أن انتهت إلى بشار فاضطرب منها وجزع وقال أشاط ابن الزانية بدمي والله وغيرها حتى شهر في الناس ما يهلكني.

وقال حماد في بشار:

لقد صار بشار بصيرا بدبره ** وناظـــره بين الأنام ضـــرير
له مقلة عمياء واست بصيرة ** إلى الاير من تحت الثياب تشير
على وده أن الحمير تنيكه ** وإن جميع العـــــالمين حـــمير

ثالثًا ــ اللهو والمجون:

تدفقت الثروة وعم الرخاء في الدولة العباسية، فانغمس كثير من الخلفاء والأمراء في حياة اللهو والمجون و الترف والمجون، بل أصبح الترف سمة امتازت بها حياة كثير من الناس في هذا العصر، وقد تجلت مظاهر الترف واللهو في عدة أمور أبرزها:

أ ـ القصور المنيفة التي شيدت على أحسن طراز، فقد كانت قصور الأمراء والخلفاء مضرب الأمثال في رونقها وبهائها، وفخامة بنائها واتساعها، والحدائق التي تحيط بها.

ب ـ شاع الغناء في هذا العصر، وكثر المغنون، حيث حفلت قصور الأمراء بالمغنين من الجواري، واشتهر من المغنين عدد غير قليل لعل أبرزهم إبراهيم بن إسحاق الموصلي.

وحذا الأمراء والوزراء حذو خلفاء الدولة العباسية في الانغماس في حياة اللهو والترف، وقد أوجدت هذه الحالة جماعة متطوعة تنكر على الفساق ببغداد، وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وأثمرت حياة اللهو كذلك حياة مقابلة لها هي حياة الزهد التي سلكها بعض الناس[٢].

وانعكس المجون أكثر ما انعكس في الموضوعات الشعرية، ذات الاتجاه المنحرف كالخمر والزندقة والغزل بالمذكر والمرأة وما إلى ذلك من الأغراض في ذلك العصر الذي عاش فيه بشار بن برد مما أثر وظهر ذلك في شعره.

وأوضح ما يكون ذلك في شعر بشار بالغزل:

نعني هنا بالغزل، الغزل الطبيعي الغزل بالمرأة، وقد طرأ عليه في هذا العصر ، أن يطلق عليه اسم الأدب المكشوف؛ وذلك أن القدامى قد عرفوا الغزل الصريح عند بعض الشعراء أمثال امريء القيس، وعمر بن ربيعة؛ ولكنهم مع معرفتهم لهذا اللَّون الصريح، تعففوا عن الأدب المنكشف القبيح، أما في هذا العصر، فقد شاعت الكلمة العريانة ، واللفظ المكشوف والمفضوح، والعبارة التي تضج بالفحش والعهر وهو في عمومه خال من نبضة الروح وحديثها، مشحون بنهمة الغريزة وصحوة الدم وصرخة الجسد[٣].

أما موضوع هذا النوع من الأدب، فلم يعد كما كان المرأة العربية الحرة الحصان التي يعفُ معها الشاعر ما استطاع، أما في هذا العصر، فلم تكن المرأة العربية الحصان موضوع هذا الغزل ، وإنما كانت هي الأمة والجارية والقينة ـــ هندية أو رومية أو فارسية أو غير أولئك من الأجناس الكثيرة التي كانت تعجّ بها دار المسلمين آنذاك.

هذه هي المرأة التي اتخذتها عصبة المجان من الشعراء موضوعًا لغزلهم، وكانت هي الأصل الذي يقاس عليه.

أما الحرة ـ في نظرهم ـ فما كان لها وجود ، وإن وجدت اسمًا، فهي بغي، ينبغي معاملتها معاملة البغايا؛ يدل على ذلك ما نقل عن أبي الفرج في أغانيه:" أن مطيع بن إياس مرَّ بيحيى بن زياد وحماد الراوية وهما يتحدثان، فقال لهما:" فيما أنتما؟ قالا :" في قذف المحصنات، قال أو في الأرض محصنة تقذفانها"[٤]

---

١ / الوافي بالوفيات (١٠/ ٨٧)
٢/ تفسير الما تريدي ، ج١، ص،٥٦.
٣ / انظر الثقافات الأجنبية، بيلو ، ص، ٢٥٦.
٤ / الأغاني، دار الكتب، ص ٣٨٦.

وبذا استخف بشار بالنساء جميعهن، واتهم كل عفيفة وكل مخدرة في عفتها والنساء في نظره جميعهن من طبقة واحدة هي طبقة الجواري والإماء، وإن أظهرن عفة ؛ فإن قيادهن لا بد أن يلين ولن تتمنع واحدة منهن إلّا إلى حين، ثم تتهاوى وتتساقط في أو حال الرزيلة ، فلا يأس ـــ إذن ـــ ولا قنوط.

لا يؤنسك مـــــن مخبأةٍ ** قــول تغلظه وإن جرحــا

عسر النساء إلى مياسرة ** والصعب يمكن بعدما جمحا [١]

ولما بلغ المهدي هذان البيتان استدعاه فلما قدم عليه استنشده فأنشده إياهما، وكان المهدي غيوراً، فقال: تلك أمك يا عاض كذا وكذا من أمه، تحض النساء على الفجور وتقذف المحصنات المخبآت! والله لئن قلت بعد هذا بيتاً واحداً فيه تشبيب لآتين على نفسك! ولم يحظ بشيء منه فهجاه في قصيدة فقال:

خليفة يزني بعـــــــــماته ** يلعب بالدبـــوق والصولجان

أبـــــــــــدلنا الله به غيره ** ودس موسى في حر الخيزران

وقال بعض الشعراء: أتيت بشاراً وبين يديه مائتا دينار فقال لي: خذ منها ما شئت، أو تدري ما سببها قلت: لا، قال: جاءني فتى فقال: أنت بشار قلت: نعم، فقال لي: كنت آليت على نفسي أن أدفع إليك مائتي دينار، وذلك أني عشقت امرأة وجئت إليها وكلمتها فلم تلتفت إليّ فهممت بأن أتركها ثم ذكرت قولك: وذكر البيتين، فعدت إليها ولازمت فناءها، فلم أرجع حتى بلغت حاجتي.

وما جاء في العقد الفريد:" حدثنا أبو سويد بن أبي عتاهية عن دعبل بن علي الشاعر قال: بينا أنا ذات يوم بباب الكرخ وأنا سائر، وقد احتوى الفكر على قلبي في أبيات شعر قد نطق بها اللسان من غير اعتقاد جنان، فقلت:

دموع عيني لها انبساط ** ونوم عيني به انقباض

فإذا أنا بجارية فائقة الجمال حوراء الطرف، يقصر عن نعتها الوصف؛ لها وجه زاهر، ونور باهر، فهي كما قال الشاعر:

كأنما أفرغت في قشر لؤلؤة ** في كل جارحة منها لها قمر

وهي تسمعني، فقالت:

هذا قليل لمن دهته ** بلحظها الأعين المراض

فأجبتها:

فهل لمولاي عطف قلب ** أو للّذي في الحشا انقراض؟

فأجابتني فقالت:

إن كنت تبغي الوداد منّا ** فالودّ في ديننا قراض

قال دعبل: فلم أعلمني [قبلها] خاطبت جارية تقطع الأنفاس بعذوبة ألفاظها وتختلس الأرواح ببراعة منطقها، وتذهل الألباب برخيم نغمتها، مع تلاعة جيد ، ورشاقة قدّ، وكمال عقل، وبراعة شكل، واعتدال خلق؛ فحار والله البصر، وذهب اللّب، وجل الخطب، وتلجلج اللسان، وتغللت الرّجلان؛ وما ظنك بالحلفاء «٣» إذا دنت من النار؟ ثم ثاب إليّ عقلي، وراجعني حلمي، فذكرت قول بشار:

لا يمنعنّك من مـــــــخدّرة ** قــول تغلّظه وإن جرحا

عسر النساء إلى مياسرة ** والصّعب يمكن بعدما جمحا

هذا لمن حاول ما دون الطمع فيه اليأس منه، فكيف بمن وعد قبل المسألة، وبذل قبل الطلبة؟ فقلت مسمعا لها:

أترى الزمان يسرنّا بتلاق ** ويضم مشتاقا إلى مشتاق؟

فقالت مجيبة لي في أسرع من نفس:

ما للزّمان يقال فيه وإنما ** أنت الزمان فسرّنا بتلاق!

قال دعبل: فلحظتها ومضيت وتبعتني، وذلك في أيام إملاقي، فقلت: مالي إلا منزل مسلم صريع الغواني، فسرت إلى بابه، فاستوقفتها وناديته[١]. هكذا نرى بشار داعية للشر وفاتح باب الخلاعة على مصراعيه.

---

١ / ديوان بشار، ج٢، ص٩٨.

بلغ ذلك المهدى فغاظه؛ وقال: يحرّض النساء على الفجور، ويسهّل السبيل إليه! فقال له خاله يزيد بن منصور الحميرى: يا أمير المؤمنين؛ قد فتن النساء بشعره، وأىّ امرأة لا تصبو إلى مثل قوله:

ولعل بشار هو أول من سلك هذا المسلك الصريح بألفاظه، الجريء في تصوير ما يجرح الإباء والعفة بما يعرض له من تسجيل ما يقع من القبلة والتجميش ؛ فاستحق أن تلقبه إحداهن " بالمعارك الأشر" في قوله:

قد لامني في خليلتي عـمر ** واللـوم فـــي غـــير كنهه ضجر
قــال أفق قلـــت لا فقال بلى ** قد شاع في الناس منـكما الـخبر
قلت وأن شـــاع ما اعتذاري ** ممـا ليس لي فيه عـــندهم عذر
مـاذا عليهم ومـــــا لهـــم ** خرسوا لو أنهم في عيوبهم نظروا
أعشق وحـــدي ويؤخذون به ** كالتـــرك تغـــزوا فيـــقتل الخزر
يا عـــجبا للخـــلاف يا عجبا ** في فم من لام في الهوى الحـــجر

إلى أن قال:

حسبي وحسب التي كلفت بها ** مني ومنها الحديث والنظر
أو قبلة في خـــــلال ذاك وما ** بأس إذا لم تحـل لي الأزر
أو عضة في ذراعـها ولـــها ** فوق ذراعي من عضها أثر
أو لمسة دون مـــرطها بيدي ** والباب قد حال دونه الستر
والساق بـــــراقة مخلخلها ** أو مص ريق وقد علا البهر
واسترخت الكف للعراك وقا ** لت إيه عني والدمع منحدر
انهض فما أنت كالذي زعموا ** أنت وربي معـــــازل أشر

ثم ختمها بقوله على لسانها:

كيف بأمـــــــي إذا رأت شفتي أم ** كيف إن شاع منك ذا الأثر
قد كنـت أخشى الذي ابتليت به ** منك فماذا أقـــــــول يا غدر
قلـــــت لها عند ذاك يا سكني ** لا بأس أني مجـــــــرب خبر
قـــولي لها بقة لـــــــها ظفر ** إن كـــان في البق مـــا له ظفر[٢]

وبشار في هذه القصيدة يستخف بالسامع، ويهمل الأخلاق الفاضلة ، ويبلغ قمة عبثه ومجونه، إذ يصف تغريره بإحدى الغريرات، ويدلها على ما تعتل به لأهلها حين يشهدون ما في جسدها من آثار، وتدافع الشعراء بعد الشعراء في ولوج هذا الباب وربما كان أشهر الشعراء بعد بشار هو أبو نواس.

وكانت هناك زجرة فعلًا كتلك التي قام بها الخليفة المهدي، فزجر بشارًا حين استطار شره ، واستسلم لإنذار الخليفة ، وأطاع ظاهرًا؛ فقال أشعارا في ذلك، منها:

يا منظرا حسنا رأيته ** من وجـه جارية فديته
لمـــعت إلىّ تسومنى ** ثوب الشباب وقد طويته
والله ربّ محـــــــمد ** مـا إن غدرت ولا نويته
إنّ الخـــليفة قـــد أبى ** وإذا أبـــــى شيئا أبيته
قـــام الخـــــليفة دونه ** فصبرت عنه ومـــا قليته
ونهانى الملك الهـــما ** م عن النساء فما عصيته
بل قـد وفيت ولم أضع ** عهدًا، ولا رأيا رأيـــته

وقال أيضًا:

والله لـــولا رضا الخليفـــــة ما ** أعطيت ضيما علىّ في شجن
قد عشت بين النّدمان والرّاح وال ** مزهر في ظل مجـــلس حسن

---

١ / العقد الفريد، ج٨، ص١٠٤.

٢ / ديوان بشار بشرح وتحقيق محمد الطاهر بن عاشور ، لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة ،ج٣ ، ص ١٦٩.

ثم نـــــهاني المـــــهدىّ فانصرفت ** نفسى، صنـــــع الوفّق اللقن

وفي هذه الكلمة يقول:

يا حـــــامد الفعل ولم يبله ** سبقت بالسّيل سيل السحـــاب
الفعـــــل أولى بثناء الفتى ** ما جاءه مـــن خطأٍ أو صواب
دع قول ذا وانتظـر فعلـه ** ينبي عن اللّقحة ما في الحلاب
إذا غدا المـــــهديّ في جـــنده ** وراح فـي آل الرسول الغضاب
بدا لك المعروف في وجهه ** كالظّلم يجري في الثنايا العذاب[1]

وأخيرًا نقول أن موجة الشك هذه، والإلحاد تنتشر في كل الأوساط، وبدأ المجان والملحدون والعابثون يذيعون حياتهم اللّاهية الماجنة بين الناس ، وآذوا الجماعة بخلاعتهم وفسوقهم، دون مراعاة للذوق العام؛ لم تقف الدولة مكتوفة اليدين، ولم يقف السلطان حيال ذلك موقفًا سلبيًا. فقد تصدى الخلفاء والأمراء والشعراء لهذه الموجة بكل أشكالها وصورها بالقوة والفكر؛ إذ شكلت هيئات من العلماء لمحاورة ومناقشة الزنادقة ، وأصحاب الملل والنحل الأخرى، والرد على شبهاتهم وأباطيلهم، وكان للمتكلمين من رجال الاعتزال .

الخـــــاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد:

فأعتقد أن البحث قد أدَّى بعض المهمة التي أريد له أن يؤديها؛ بأن قدم صورة متكاملة لمدى تأثر الشاعر بشار بن برد بالثقافات الأجنبية الوافدة في العصر العباسي؛ دون أن تطمس هويته الشعرية العربية.

فموضوع الدراسة (أثر الثقافات الأجنبية في الشعر العباسي) ، من خلال الشاعر بشار بن برد الأعمى التي تجسدت فيه بصدق روح هذا العصر ، وما فيه من لهو ومجون وزندقة وفلاسفة ومتكلمين؛ فاشتملت الدراسة على مقدمة؛ تناولنا فيها الأسباب والبواعث التي أدت لاختيار البحث ، وأهدافه ، والمنهج المتبع، ثم فصل تمهيدي تحدثنا فيه عن صورة المجتمع العباسي، وما حدث فيه من تطور، وانفتاح على الشعوب الأخرى ،وتجديد في الأفكار، وأربعة فصول؛ فالمبحث الأول؛ تحدثنا فيه عن تعريف الشاعر بشار بن برد، اسمه ولقبه ونشأته وشعره وآراء المتقدمين فيه، تبين لنا أن شاعرنا مبدع ومبتكر كثير الشعر في مختلف الأغراض، واختراعات متفننًا في الشعر؛ فهو أمير الشعراء المجددين في الشعر العباسي.

والمبحث الثاني؛ تحدثنا فيه باختصار عن الثقافات الأجنبية الوافدة مثل : الفارسية، واليونانية والهندية؛ ومدى أثرها في شعر الفترة المعنية، وتبين لنا أن المجتمع العربي وقتئذ هضم تلكم الثقافات وتأثر بها

---

١ / جمع الجواهر في الملح والنوادر، ج١، ص٦٥.

الأدباء والشعراء والأمراء وحتى الخلفاء واتضح جليًا أن الثقافة الفارسية كان لها النصيب الأكبر في التأثير على الشعر والشعراء في مختلف الأغراض الشعرية.

والمبحث الثالث عن مدى تأثر شعر بشار بالثقافات الأجنبية في ألفاظه، وأساليبه وأوزانه ، وقوافيه؛ فتبين لنا أن شعره جاء سهلا في ألفاظه وعميقًا في معانيه ، وأنه قرض الشعر في بحور خفيفة ومجزوءة؛ لتواكب الحركة الغنائية في عصره، ومع ذلك لم ينفك عن القصيدة العربية الأصيلة في كثير من أغراضه وخاصة في مقام الفخر والمدح.

والمبحث الثالث؛ تناولنا فيه الأغراض الشعرية التي طرقها بشار مثل: الشعوبية والزندقة والإلحاد واللهو والمجون؛ فظهر جليًا أن لبشار خطوطًا شعوبية تبلغ المرتبة في تهكمه على العرب والبدو، وتقبيح العرب في معيشتهم وتصنيفهم في مرتبة دون الصفر، وأن بشارًا زنديقًا فاسقًا وقتل على الزندقة مخمورًا ؛ ففرح المسلمون لموته لما كانوا يعانونه من لسانه وزندقته وفحشه؛ وهو مع ذلك ماجن عربيدًا فتح باب الخلاعة على مصرعيه متخذًا من شعر الغزل بابًا ولج به لما يهدف إليه من مجون ولهو؛ اتخذ أصحاب الأهواء واللهو والمجون شعره ليصلوا إلى ما يصبوا إليه.

وتوصلت الدراسة إلى نتائج أهمها:

١ــ أن شعر بشار أشبه بوثيقة تستمد عناصرها من التيارات الأجنبية، ويكشف لنا عن طبيعة الحياة الأدبية، والاجتماعية، والسياسية في هذا العصر، عصر سيطرة العنصر الأعجمي على العنصر العربي.

٢ــ أن شعر بشار أشبه بوثيقة تستمد عناصرها من التيارات الأجنبية، ويكشف لنا عن طبيعة الحياة الأدبية، والاجتماعية، والسياسية في هذا العصر، عصر سيطرة العنصر الأعجمي على العنصر العربي.

٣ــوأظهرت الدراسة شدة تأثر بشار بن برد بهذه بالثقافات الوافدة ولا سيَّما الثقافة الفارسية، دون أن تطمس هويته الشعرية العربية.

٤ـ وحين نلقي نظرة عامة على شعر بشار، نجد تأثير الحياة الجديدة ظاهره فيه من حيث لفظه ؛ فقد صفا وراق، وفي أسلوبه اتضح وأشرق، وقد مال بشار إلى السهل من الألفاظ، والرشيق الليِّن الممثل للمعنى، والتنائي عن الغليظ الجافي من مفردات اللغة، ونزع إلى كل عذب سلس من الألفاظ تسيل رقة وعذوبة.

٥ ـ وكان بشار أستاذ أهل عصره من الشعراء غير مدافع، ويجتمعون إليه وينشدونه ويرضون بحكمه، و زعيم المجددين في الشعر، ومحل بشار في الشعر وهو المقدَّم من الشعراء المجددين، بإجماع الرواة ورياستهم عليهم من غير اختلاف.

٦ ـ تميز شعر بشار بقوة الأسلوب؛ ونعني بالأسلوب اللغة وكل ما يتعلق بها من الجزالة والسهولة وفخامة البناء، وبراعة الصياغة؛ فعرف بفصاحة ألفاظه وبعدها عن الخطأ؛ فليس في شعره ما يشك فيه من دقة الوصف و التصوير.

التوصيات: يوصي الباحث بدراسة الثقافات الأجنبية وتطبيق أثرها على كل أدباء الفترة في مجالي الشعر والأدب، وكما يوصيان بدراسة التجديد في شعر بشار بن برد ولا سيما في البحور الشعرية الخفيفة.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

أهم المصادر والمراجع

[١] / الوزراء والكتاب للجهشياري ، مطبعة مصطفي الحلبي ١٩٣٨م.

٢/ العصر العباسي الأول، د. شوقي ضيف.

٣/ البيان والتبيين، عمرو بن بحر بن محبوب الكناني بالولاء، الليثي، أبو عثمان، الشهير بالجاحظ (ت: ٢٥٥هـ)،الناشر: دار ومكتبة الهلال، بيروت، عام النشر: ١٤٢٣ هـ .

٤/ العمدة في محاسن الشعر وآدابه، أبو على الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي (ت: ٤٦٣ هـ)،المحقق: محمد محيي الدين عبد الحميد، الناشر، دار الجيل، ط٥،ط٥، ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م.

٥/ الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء، أبو عبيد الله بن محمد بن عمران المرزباني (ت: ٣٨٤هـ)

٦/ معاهد التنصيص على شواهد التلخيص،عبد الرحيم بن عبد الرحمن بن أحمد، أبو الفتح العباسي (ت: ٩٦٣هـ)،تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، الناشر: عالم الكتب – بيروت.

٧/ المحاضرات في اللغة والأدب، الحسن بن مسعود بن محمد، أبو علي، نور الدين اليوسي (j: ١١٠٢هـ)
٨/ الأمالي ، حمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، أبو الفيض، الملقّب بمرتضى، الزَّبيدي (ت: ١٢٠٥هـ)
٩/ أدب الكاتب، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (ت: ٢٧٦هـ)،تحقيق: ثروت عكاشة، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب،القاهرة، ط٢، ١٩٩٢ م .
١٠/تاريخ الأمم والملوك، محمد بن جرير الطبري، تحقيق محمد أبو الفضل، دار المعارف، ط٢، ١٩٧٢ م.
١١/ حديث الأربعاء، طه حسين، دار المعارف،ط٩.
١٢/ ضحى الإسلام، أحمد أمين، لجنة تأليف والترجمة والنشر، ط١.
١٣/ تاريخ الأدب العربي، مصطفي السباعي بيومي، مطبعة العلوم، ط٢، ١٩٣٧م ، ص٢٥٠.
١٤/ الفهرست، أبو الفرج محمد بن إسحاق بن محمد الوراق البغدادي المعتزلي المعروف بابن النديم (ت ٤٣٨ هـ)،تحقيق إبراهيم رمضان، الناشر، دار المعرفة بيروت – لبنان،ط٢، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ مـ.
١٥/ ديوان أبي العتاهية ، جمعه وحققه لويس شيخو ، طبعة بيروت .
١٦/ الفن ومذاهبه في النثر العربي، أحمد شوقي عبد السلام ضيف الشهير بشوقي ضيف (ت: ١٤٢٦هـ)،الناشر، دار المعارف،ط١٣ .
١٧/ الأغاني المصورة، دار الكتب،.
١٨/ تاريخ آداب اللغة العربية، جورجي زيدان، دار الهلال،١٩٥٧م، ج١،ص٤. وضحى الإسلام ج١،
١٩/ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ،المؤلف: يوسف بن تغري بردي بن عبد الله الظاهري الحنفي، أبو المحاسن، جمال الدين (المتوفى: ٨٧٤هـ)، الناشر: وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دار الكتب، مصر
٢٠/ الفهرست، أبو الفرج محمد بن إسحاق بن محمد الوراق البغدادي المعتزلي الشيعي المعروف بابن النديم (المتوفى: ٤٣٨ هـ)،المحقق: إبراهيم رمضان، الناشر: دار المعرفة بيروت – لبنان،ط٢، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ مـ .
٢١/ الثقافات الأجنبيَّة في العصر العباسي، صالح آدم بيلو .
٢٢/ البيان والتبيين، عمرو بن بحر بن محبوب الكناني بالولاء، الليثي، أبو عثمان، الشهير بالجاحظ (ت: ٢٥٥ هـ)،الناشر: دار ومكتبة الهلال، بيروت، عام النشر: ١٤٢٣ هـ .
٢٣/ الفن ومذاهبه في الشعر العربي، أحمد شوقي عبد السلام ضيف الشهير بشوقي ضيف (المتوفي: ١٤٢٦هـ)الناشر، دار المعارف بمصرط١٢.
٢٤/ العقد الفريد، أبو عمر، شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد ربه ابن حبيب ابن حدير بن سالم المعروف بابن عبد ربه الأندلسي (ت: ٣٢٨هـ) ،الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت،ط١، ١٤٠٤ هـ.
٢٥/ زهر الأكم في الأمثال والحكم،المؤلف: الحسن بن مسعود بن محمد، أبو علي، نور الدين اليوسي (المتوفى: ١١٠٢هـ) المحقق: د محمد حجي، د محمد الأخضر، الناشر: الشركة الجديدة - دار الثقافة، الدار البيضاء – المغرب ،الطبعة: الأولى، ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م.
٢٦/ زهر الآداب وثمر الألباب ، المؤلف: إبراهيم بن علي بن تميم الأنصاري، أبو إسحاق الحُصري القيرواني (المتوفى: ٤٥٣ هـ)،الناشر: دار الجيل، بيروت.
٢٧/ المنصف للسارق والمسروق منه، المؤلف: الحسن بن علي الضبي التنيسي أبو محمد، المعروف بابن وكيع (المتوفى: ٣٩٣هـ)،حققه وقدم له: عمر خليفة بن ادريس،الناشر: جامعة قات يونس، بنغازي،الطبعة: الأولى، ١٩٩٤ م
٢٨/ الملل والنحل، المؤلف: أبو الفتح محمد بن عبد الكريم بن أبى بكر أحمد الشهرستاني (المتوفى: ٥٤٨هـ)،الناشر: مؤسسة الحلبي
٢٩/ مجمع الحكم والأمثال في الشعر العربي، المؤلف: أحمد قبش بن محمد نجيب.
٣٠/ إخوان الصفا "طبع مصر"
٣١/ ابن خلكان "طبع مصر" .

٣٢/ الفصول والغايات في تمجيد الله والمواعظ، المؤلف: أحمد بن عبد الله بن سليمان بن محمد بن سليمان، أبو العلاء المعري، التنوخي (ت: ٤٤٩هـ)
٣٣/ أغاني "ساسي" ٢١/ ٦٩. والعيس: الإبل. أربعوا: أقيموا.
٣٤/ الصناعتين،المؤلف: أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري (المتوفى: نحو ٣٩٥هـ)،المحقق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر: المكتبة العنصرية – بيروت، عام النشر: ١٤١٩ هـ
٣٥/نقد الشعر، المؤلف: قدامة بن جعفر بن قدامة بن زياد البغدادي، أبو الفرج (ت: ٣٣٧هـ)
٣٦/ وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر ابن خلكان البرمكي الإربلي (ت: ٦٨١هـ)،المحقق: إحسان عباس، الناشر: دار صادر – بيروت، الطبعة ،ط١ ، ١٩٩٤،١٩٠٠م.
٣٧/ الحيوان، المؤلف: عمرو بن بحر بن محبوب الكناني بالولاء، الليثي، أبو عثمان، الشهير بالجاحظ (المتوفى: ٢٥٥هـ)،الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤٢٤ هـ
٣٨/ المغرب في حل المغرب "الطبعة الثانية بدار المعارف".
٣٩/ معجم الأدباء = إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب،المؤلف: شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي (المتوفى: ٦٢٦هـ)،المحقق: إحسان عباس،الناشر: دار الغرب الإسلامي، بيروت.
٤٠ / : شرح الكافية الشافية،المؤلف: محمد بن عبد الله، ابن مالك الطائي الجياني، أبو عبد الله، جمال الدين (المتوفى: ٦٧٢هـ)،المحقق: عبد المنعم أحمد هريدي،الناشر: جامعة أم القرى مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي كلية الشريعة والدراسات الإسلامية مكة المكرمة،الطبعة: الأولى
٤١ / تفسير الماتريدي (تأويلات أهل السنة)،محمد بن محمد بن محمود، أبو منصور الماتريدي (ت: ٣٣٣هـ)،المحقق: د. مجدي باسلوم، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، لبنان ط١، ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م.
٣٤ / ديوان بشار بشرح وتحقيق محمد الطاهر بن عاشور ، لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة .
٤٢/ جمع الجواهر في الملح والنوادر،المؤلف: إبراهيم بن علي بن تميم الأنصاري، أبو إسحاق الحصري (المتوفى: ٤٥٣هـ)
٤٣ / الوافي بالوفيات، صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله الصفدي (ت: ٧٦٤هـ)،المحقق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، الناشر: دار إحياء التراث – بيروت، عام النشر: ١٤٢٠هـ- ٢٠٠٠م.
٤٤/ الشعر والشعراء، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (ت: ٢٧٦هـ)،الناشر: دار الحديث، القاهرة، عام النشر، ١٤٢٣ هـ.
٤٥/ تاريخ بغداد، أبو بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي (ت: ٤٦٣هـ)،تحقيق، الدكتور بشار عواد معروف ، الناشر: دار الغرب الإسلامي ،بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢ م.
٤٦/ طبقات الشعراء، عبد الله بن محمد ابن المعتز العباسي (المتوفى: ٢٩٦هـ) ،المحقق: عبد الستار أحمد فراج الناشر، دار المعارف ، القاهرة، ط٣.

(The impact of foreign cultures In Abbasid poetry)

(Bshar Ibn Brd as sample)

A .Prof.Dr. Bakheit Fadal ALseed Salama

Red Sea University (Port . Sudan – Sudan)

Abstract :

This study entitled “The impact of foreign cultures In Abbasid poetry – Bshar Ibn Brd as sample” aims to follow the impact of foreign cultures in Abbasid poetry through one of its poets Bshar Ibn Brd who reflects deeply and sincerely this era spirit. The problem of this research has adopted one main question, what is the impact of foreign cultures on Bshar Ibn Brd’s poetry? The researcher has used descriptive analytical approach with its tools description, analyze and application. The importance of this research emanates from containing detailed statement of the renewal of Abbasid poets in poetry words its contents on the basis of fixed combined approach between inherited artistic components and new civilization and it contains clarification of the benefits of Arab poetry from the incoming thoughts this is through Bshar Ibn Brd’s poems. Although the foreign cultures have their effective contribution in shaping Arab literary, the Arab library is still in need of such study. The study came out with many results the most important: Bshar Ibn Brd’s poetry is like document which its components are taken from foreign ideas. It reveals to us the political, social and literary life nature of this age, the age of domination of foreign race against Arab one. This study has shown that Bshar Ibn Brd deeply affected by these incoming cultures particularly Persian culture without neglecting his Arab poetry identity. Generally in looking on Bshar’s poetry, we find the influence of new life is clear in his words. His words are pure and simple and his style is brilliant, soft, smooth, representing the meaning and far from heavy and inconsistent with the words of the language, inclining to sweet and smooth words. The research contains introduction and four chapters. The introduction talks about the society in Abbasid age, the first chapter introduces the poet Bshar Ibn Brd, the second chapter talks on the incoming cultures such as Persian, Indian, Greece and cerianthid and their effect on Abbasid society. The third chapter addresses the influence of these cultures on Bshar’s poetry. The

fourth chapter handles the poetry topics raised by Bshar Ibn Brd and the impact of foreign cultures. Then conclusion contains summary of the study and the most important results .

Keywords: Persian,Romanism,Indian,Cerianthid, Shuubism , heresy, amusement, obscenity,shameless.